الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد
UNIVERSITÉ DE TLEMCEN

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

المـــــوضـــوع:

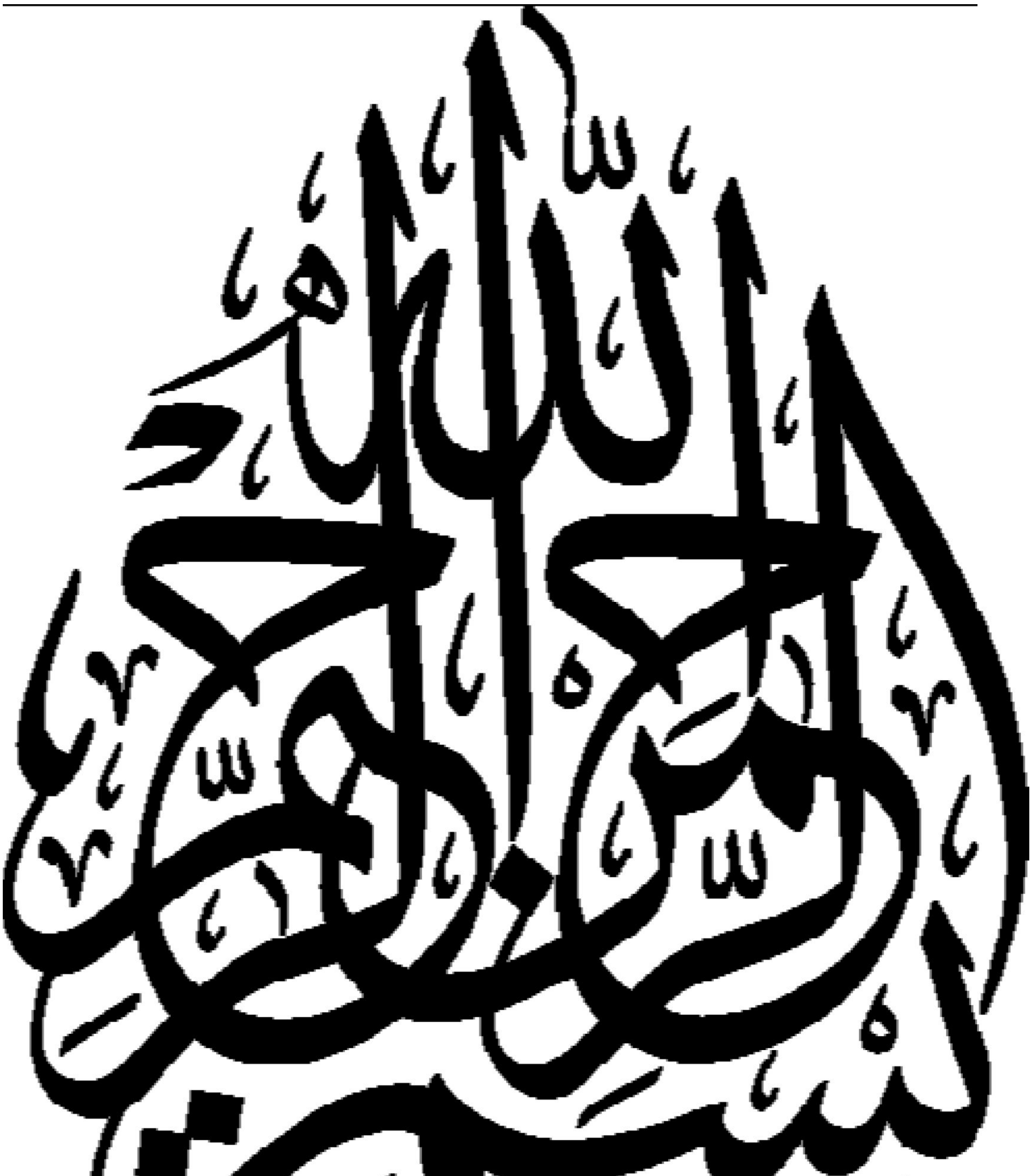
مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي" رثاء المدن والممالك نموذجا"

إعداد الطالب (ة): عمران بتول

إشـــراف: د .وهيبة بن حدُّو

لجنة المناقشة		
الدكتورة	ليلى رحماني	رئيسا
الدكتور	أحمد بشيري	ممتحنا
الدكتورة	وهيبة بن حدو	مشرفا مقررا

العام الجامعي :1441/1440هـ /2019-2020م


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

إهداء

بسم الله الرحمان الرحيم

أهدي هذا العمل المتواضع إلى :

من كان دعائها سر نجاحي و حنانها بلسم جراحي ، إلى أغلى من روحي أمي الحبيبة فتيحة أطال الله في عمرها.

إلى النور الذي ينير لي درب النجاح أبي الغالي عبد الرحمان أطال الله في عمره

إلى من حبهم يجري في عروقي و يلهج بذكراهم فؤادي إلى إخوتي: خديجة ، سارة ، ياسمينة ، إكرام ، محمد الأمين

و إلى الكتاكيت الصغار رشيد ، محمد ، نصر الله و أمال

إلى منبع الحنان الثاني و صاحبة القلب الصافي جدتي العزيزة و إلى من علمني معنى التفاؤل و الصبر جدي العزيز أطال الله في عمرهما

إلى كل من تسعهم ذاكرتي و لا تسعهم مذكرتي أهدي ثمرة جهدي

عمران بتــــــول

***** كلمة شكـــــر ****

أوّلا أشكر وأحمد الله عزّ وجل الذي وفقني لهذا العمل ولم أكن لأصل إليه لولا فضل الله علي "فاللهم لك الحمد ولك الشكر كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك".

أتقدّم بأسمى آيات الشكر والامتنان والتقدير والاحترام إلى الأستاذة الفاضلة *بن حدوّا وهيبة * التي أشرفت على بحثي فجزاها الله كل الخير.

كما أتوجه بأرقى وأثمن عبارات الشكر والعرفان إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد وأخصّ بالذكر الأستاذ بن سنوسي الذي زوّدني بالمعلومات حول هذا الموضوع.

والشكر الخاص إلى أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة بحثي هذا.

مقدمة

بسم الله الرحمان الرحيم و الصلاة و السلام على أشرف خلق الله سيد المرسلين و على آله و صحبه أجمعين:

أطلق العرب لفظ الأندلس على القسم الذي فتحوه من شبه جزيرة ابيرية(اسبانيا) و ذلك بقيادة طارق بن زياد.

و كان للأندلسيين عناية كبيرة بالأدب و خاصة الشعر، فضلا عن ذلك تخطى بلاد الأندلس بمكانة عالية بين البلدان، و يرجع ذلك إلى شيوع الفناء فيها و الطبيعة الخلاصة مما جعلها بلدا مستقلًّا، و قد لقى الشعر الأندلسي العنايَة الفائقة من قبل الشعراء الأندلسيّين، و من المعروف أنّ الشعر الأندلسي كان في بدا يائه تقليدا لآثار الشرف لكن الشعراء الأندلسيّين لم يتوقفوا على ذلك يل طوَّروا مُعظَم الفنون الشعرية و توسَّعوا فيها، و قد تمخض عن هذا التطور ظهور بعض الحركات التجديدية مثل شعر الطبيعة و الموشح و الزجل إضافة إلى رثاء المدن و الممالك الزائلة.

يرجع سبب اختياري لهذا الموضوع لأنّه غنيّ بالمصادرالتي تتحدّث عن فنون الأدب في بلد الأندلس، و قد ارتأيت من خلال بحثي معالجة بعض الإشكالات أهمها:

- ما هو الشعر الأندلسي و ما هي مراحل نشأته؟
- و ما هي أهم مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي؟
- و كيف كانت مميزات كل مظهر؟.

و للإجابة على هذه التساؤلات سرت على خطة ممنهجة كالآتي:

- مدخل يليه فصلين و خاتمة.

و رد المدخل بعنوان: مفهوم الشعر الأندلسي، تناولت فيه تعريفا للشعر و بعده خصصت الحديث عن الشعر الأندلسي إضافة إلى نشأة هذا الأخير من عصر الولاة الذي تميز بكثرة الحروب السياسية، فعصر الإمارة و التي كان عبد الرحمان الداخل مؤسسها و يأتي بعدها عصر الخلافة.

أما الفصل الأول الموسوم ب: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي فاعتمدت فيه على ثلاث مباحث، كان المبحث الأول يتمحور حول شعر الطبيعة الذي وضعت فيه وصف البيئة الأندلسية أنهارها و أزهارها، و لعل أشهر شاعر اختص في هذا المجال ابن خفاجة و غيره، أما المبحث الثاني تطرقت فيه إلى الموشّحات الأندلسية، وضحت فيه بعض المفاهيم إضافة إلى مخترعها و نشأتها ثم بعض الجوانب الفنية لها. و كان المبحث الثالث يدور حول الأزجال الأندلسية باعتبارها وليدة الموشَّحات.

و الفصل الثاني كان بعنوان: رثاء المدن والممالك، فقد قسَّمتُه أيضا إلى ثلاث مباحث، درست في المبحث الأول البذور الأولى للرثاء عند أهل المشرق، و الثاني تناولت فيه رثاء المدن الأندلسية أبرزها(طُليطلة و بَلَنسية)، أما المبحث الثالث فَعَنونتُه برثاء الممالك الأندلسية و خصصت بالذكر(دولتي بني عباد و بني الأفطس).

و كانت الخاتمة تتمثل في بعض النتائج التي توصلت إليها.

و قد سرتفي هذا البحث على المنهج، التاريخي و كذا الوصفي التحليلي و اعتمدت في هذا المذكرة جملة من المصادر و المراجع أهمها:

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني.
- الموشحات و الأزجال الأندلسية و أثرها في شعر التروبادور لصاحبه محمد عبَّاسة.
- دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة للطَّاهر أحمد مكي.

أما العراقيل التي واجهتني في بحثي هذا تتمثل في كثرة المصادر و المراجع مع ضيق الوقت مما صعب عليَّ ترتيب الأفكار و المعلومات التي عَثَرت عَليها.

و ختاما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذتي المحترمة بن حدو التي كان لها الدور الأساسي في بناء هذا البحث.

و يبقىموضوع بحثي مفتوحا بدراسات أخرى لم أقف عندها.

بتول عمران

08جوان2019-05شوال 1440

مـــــدخل:

مفهوم الشّعر الأندلسي

1-مفهوم الشعر:

جاء في اصطلاح النّقاد تعريف الشعر كما يلي " الشّعر ديوان العرب و يمكن القول أنّه سجلهم النّفيس الذي حفظ تُراثَهم و تَاريخهم و آدابهم وأخلاقهم وإنّه مَتحفَهم النَّاطق الذي دوّنُوا فيه أخبار أبطالهم ووقائع بطولاتهم و ما تفرّدت به قرائح حُكَمائهم...ولولا الشّعر العربي،لما عُرفت الآداب العربية ولما شهرت القبائلُ و أخبارَها في مخالفاتها و تناقضاتها. ولولاه أيضًا لما اغتنت خزانة العلوم العربية بكل ما تحمل به الآن في مواضيع البلاغة و البيان و النحو و اللغة."[1]

و يعرّفُ قدامة بن جعفر الشعرَ بأنّه"قولٌ موزونٌ مُقفّى يدل على معنى،و ذَكَرَ أنَّ الشعرَ قد يكونُ جيّدًا أو رديئًا أو بين الأمرين و أنّه صنعةٌ ككُلّ الصناعات."[2]

كما نجد تعريفات متعدّدة للشعر و منه " يبدوا أنّ الشّعر ممارسة مرتبطة بجوهر الإنسان. لذا فهو نشاطٌ عابرٌ للعصور و الثقافات إذ مُورسَ قديمًا و لا يزال يمارسُ، و يبدوا أنّه باق مستقبَلاً."[3].

و من هنا يمكن القول أنّ الشعر العربي مرَّ على عدّة عصور و منه العصر الأندلسي الذي سيكون موضوع حديثنا.

2-الشعر الأندلسي و نشأته:

أ-الشعر الأندلسي:

يحظى الشّعر عند العرب ببالغ الاهتمام لأنّه وسيلةٌ للتّعبير عن أحَاسيس الجميع في آلامهم و آمالهم، و هو مصدر من مصادر قُوَّتهم استعمل في السلم و الحرب، و دوّنت فيه وقائعهم و مفاخرَهم.[4]

1-ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت،ص:5.

2-قدامة بن جعفر، نقد الشعر ، مكتبة الكليّات الأزهرية، الطبعة الأولى، تحقيق عبد المنعم خفاجي،(1398هـ-1978م) :53.

3-خميس الورتاني، الإيقاع في الشعر العربي الحديث ،دار الحوار (□□) :9.

4-ينظر ،باقر سماكة، التجديد في الأدب الأندلسي، مطبعة الإيمان ، بغداد،1971 :21.

و يرى **باقر سماكة** أنّ "الشعر لم يتأخرْ عن الظهور في الأندلس و لم يَقصُر في مجالات الابتكار و الازدهار و قد ساعدت على ذلك عوامل كثيرة منها الملكة الأصلية و الموهبة الفطرية،بالإضافة إلى جمال الطبيعة الأندلسية الموحي للأفكار و القرائح و لقد بلغ حرص الأندلسيين على الشعر أنّهم كانوا يشجعون أولادهم على نظمه."[1]

فاختلفت الآراء حول ماهية الشعر الأندلسي كما تعدّدت أيضًا، و قد نبع الشعر الأندلسي...،من بحر الشعر المشرقي.[2] و لابدّ أن نُنَبه من أوّل الأمر إلى أنّ الشعرَ الأندلسي عامّة –فيما خلا بضع شواذ –فقير جدًّا من النّاحية الذّهنية التفكيرية.[3] ولقد كان الشّعر الأندلسي –خاصّة–أقلّ من غيره نصيبًا من العناية و الدّراسة، لأنَّ كثيراً جدًّا من دواوينه و مجموعاته لم تنشر بعدُ.[4]

فمن وجهة نظر الباحث محمد عبّاسة في كتابه الموشحات و الأزجال الأندلسيّة "يتميّز الشعر الأندلسي بالرقّة و جمال الأُسلوب و يَغلُبُ عليه الخيال و الطّيفُ، يرتكزُ على الوصف و عُذوبة الألفاظ أكثر ممّا يرتكز على المعاني،لأنّ أصحابَهُ ابتعدوا عن التيارات الفلسفية و العمق في المعاني، و لأنّهم أيْضًا كانوا يتّغنّونَ به، فأكثَرَهُ صالحٌ للغناء.و كان الشّاعرُ الأندلسي ميّالاً للأوزان الخفيفَة التي تتلائمُ و الألحان الموسيقية."[5]

و هكذا نرى أنّ الشعرَ الأندلسي كان في بداياته ذات أصول مشرقية إلى أن وَصَلَ إلى مرحلة النُضج.

1–باقر سماكة، التجديد في الادب الأندلسي،21.

2–ينظر، ايميليو غارسيا غومس، الشعر الأندلسي، بحث في تطوّره و خصائصه، مكتبة النّهضة المصريّة، ترجمة حسين مؤنس،القاهرة،ص:05.

3–المرجع نفسه، ص :06.

4–ينظر ،المرجع نفسه ، ص :70.

5–محمد عبّاسة، الموشحات و الأزجال الأندلسية و أثرها في شعر التروبادور ،دار أم الكتاب، الطبعة الأولى،2012،الجزائر،ص:29.

فمن الملاحظ أنّه" لم يقتصر الشعْرُ في الأندلس على الرّجال فقد كان هناك من النّساء مَن نَظَمْنَ الشعرَ و جوَّدنَ به مثل ولاّدة بنت المستكفي و أنَسُ القُلوب جاريّةُ المنصور و حفصة الرَّكونية و حُسَّانة التميمية."[1]

كما نجد الأديب عبّاسة يقول " لا يختلف الشعر الأندلسي عن الشعر العربي إلاّ في مواضع التجديد و نحوها، إذ هو من ديوان العرب."[2]

فمن نافلة القول نرى أنّ الشعر الأندلسي هو ذلك الفن الذي ظَهَر و نَشَأَ في حضارة الأندلس على يد مجموعة من الشعراء.

و يذهب **أغناطيوس كراتشوفسكي** إلى أنّ "الشعر العربي في الأندلس ظاهرة معقّدة رغْمَ ما تبدوا عليها من بساطة، ظاهرة مَرّت في مراحل مختلفة. ووجدت أحيانًا في أشكال متوازية تبدو لأوّل وهلة متناقضة. و لعلَّ محاولة التذكر باضطراب الحياة السياسية في الأندلس تساعدنا بعض الشيء على الإمساك بالخط السياسي لتطوّر الشعر في مختلف مراكز الحضارة الأندلسيّة."[3]

و في مايلي سنتطرّق إلى هذه المراحل و نتوقف عند أهم ما مرَّ بالشعر الأندلسي.

ب-نشأته:

1-الشعر في عصر الوُلّاة:

لما دخل العرب في هذه الفترة إلى الأندلس لم يجدوا فيها عربًا بل أعاجم، حيث كان أغلب الدّاخلين من الجند المجاهدين في سبيل الإسلام. و لذا تعذرّ وجود ثقافة متميّزة في تلك الفترة. و ليس معنى ذلك أنّ الثقافة العربية كانت معدومة في بداية الفتح، فقد كان من بينهم من يقرض الشعر.[4]

1-باقر سماكة، التجديد في الأدب الأندلسي،ص.23.

2-محمد عبّاسة، الموشحات و الأزجال الأندلسية و أثرها في شعر التروبادور،ص:07.

3-أغناطيوس كراتشوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات،(الشعر العربي في الأندلس)،ترجمة: محمد المعصراني، دار النشر " علم" موسكو،1965 " :90.

4-ينظر، محمد عبّاسة، الموشحات و الأزجال الأندلسية و أثرها في شعر التروبادور،ص:07.

لقد ظهر الشعر في الأندلس في الوقت الذي وَصَلَ فيه العرب إلى هذا البلد، غير أنّنا لا نملك إلاّ النُّزّرَ منه،[1] حيث"عملت عوامل متّعَدّدة على كثرة الاضطرابات في هذا العصر."[2] فلم يكن للشعراء وقت لتدوين أشعارهم.[3]

كما تعدّدت الآراء حول نشأة الشعر منها أنّه" كان من بين العرب الوافدين على الأندلس في فترة الولاّة نَفَرٌ ممّن يقرضون الشعرَ،و قد حفظت لنا المراجع بعضُ أسماء هؤلاء فمنهم: أبو الأجرب جعونة بن الصّمة: و هو من العرب الطّارئين على الأندلس."[4]

يقول جعّونة:[5]

و لقد أرَاني منْ هَوايَ بمنـزل عال وَ رأسي ذو غَدَائرَ أَفْرَعُ

و العيش أغْيَدُ سَاقطٌ أفنـانُه و المَـــاءُ أَطْيَبـَهُ لـنَا و المَرْتَع

و من الشعراء أيْضًا في ذلك العهد نجد: حسام بن ضرار الكلبي و هو أبو الخطّار، و كان من أشراف قبيلته و هو القائل:[6]

فَلَيْتَ ابن جــوّاس يخبّــرُ أنّني سَعَيْتُ به سَعْيَ امرئ غَيْرَ غَافل.

قَتَلْتُ به تسعينَ تَحْسَبُ أنّهُم جُذوعُ نَخْـل صُرّعَتْ بالمسـَائل.

حيثأنَّ" هذان شاعران تردّد شعرُهما في الأندلس خلال فترة الوُلّاة، و من المُحقق أنّهماليكونا وحدهما الذين عُرفَا بقَوْل الشعر في تلك الفترة و إنّما كان هناك آخرون نُسيَّت أسماءهم و ضاعَت أشعارُهم

1-محمد عبّاسة، مرجع سابق ،ص.07

2-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدّول و الإمارات في الأندلس، دار المعارف، القاهرة ج،8ص:20.

3-محمد عبّاسة، الموشحات و الأزجال الأندلسية،ص:07.

4-أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ،دار المعارف،القاهرة،1985 :61.

5-الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، المكتبة العصريّة، الطبعة الأولى،(1425هـ،2004م)،بيروت،ص:187.

6-ينظر، الضّبي ،بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق : إبراهيم الأبياري، الجزء الأوّل، دار الكتاب اللبناني،بيروت،ص:344.

مع الكثير ممّا نُسيَّ و ضاعَ من تراث الأندلس."[1] بسبب الحروب المتواصلة و الفتن و عدم التدوين و ضياع المصادر. و يعدُّ هذا الشعر امتدادًا للشّعر المشرقي من حيث الأشكال و الموضوعات و ليست لهُ شخصيّة أندلسية يستقلُّ بها.[2]من هنا نستنتج أنّ الشّعْر في هذه الفترة كان قليلا نتيجة الحروب و الاضطرابات التي حلّت بالبلد."و هو شعر يجري على تقاليد المدرسة المحافظة...،فهو يعني بجزالة اللّفظ و فخامَة العبارة،و لا يُرى في مَعَانيه كثيرٌ من تَعَمُّق الفكر."[3]

كما نرى أخيراً في هذا العهد أنّ الشعر كان مقلّدًا و غير مُجدّد.

2-الشّعر في عصر الإمارة:

يمثل هذا العهد ثاني مرحلة من مراحل الشعر الأندلسي حيث" تأسست الإمارة بالأندلس سنة (138هـ-755م) على يد عبد الرحمان الدّاخل الذي فرَّ من المشرق بعد سقوط دولة بني أميّة في دمشق على يد العباسيين."[4]

ففي هذه الفترة ظهر الجيل الأوّل من الأدباء الأندلسيين و نَبغَ من بينهم كذلك النساء الشواعر،كما كان الأمراء الأندلسيون أيضًا يُنَظمون الشعر.[5]

و من شعر عبد الرحمان و قد رأى نخلة برصافته:[6]

تبدّت لنَا وَسْطَ رصافة نخلـــــــةٌ تناءت بأرض الغَرْب عنْ بلَد النَّخْــل

فقُلْتُ شبيهي في التغرُّب و النّوى و طول اكتئابي عنْ بنيَّ و عن أهلي

1-أحمد هيكل ،الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص :63.

2-ينظر، محمد عبّاسة،ا لموشحات و الأزجال الأندلسية،ص:11.

3-أحمد هيكل،ا لأدب الأندلسي، ص :64.

4-محمد عبّاسة، الموشحات و الأزجال الأندلسية،ص:11

5-ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6-أحمد بن محمد المقرّي التلمساني ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تحقيق د. إحسان عبّاس ،ج/3،دار صادر ،بيروت ،ص:54.

فالشاعر هنا"جَعَل من النَّخلة إنسانا حيًّا يغتربُ و ينآى عن الوطن و يبعد الأهل،وأوجد بينهُ و بينها مشاركة وجدانية و علاقة نفسية جعلته يخاطبُها."[1]

و من هنا نرى أنّ عبد الرحمان الدّاخل عند ما كان مغتربا عبّر عن أحاسيسه من خلال الحديث مع النَّخلة و إلقاءالشعر .كما "بدأ الأدب العربي و لاسيما الشّعر منه في هذه الأرض الأندلسية يحبو روَيّداًرويّداًخلال عهد الإمارة،و قد ظلَّ الأدب في تطور غير واضح المعالم و كثيراً ما كان سيره يضطرب خلال الزَّعازع التي مرّت على الأندلس."[2]

و لعلَّ من أشهر الشعراء في هذه الفترة "سعيد بن جودي الذي يمثلّ صورة الشاعر الفروسي المثالي،كان فارسًا شجاعًا...،تُعدّ له عشرة خصال تفرَّدَ بها في زمانه و لمْ يدفع عنها،و هي الجود و الشجاعة و الفروسية و الجمال و الشعر و الخطابة و الشدّة و الطّعن و الضّرب و الرّماية."[3]

و من شعره في الفروسية قوله:[4]

الدّرعُ قد صارتْ شعاري فَمَا أَبسَطُ حاشاها لتهجاعْ

و السَّيْفُ إن قصّره صانــعٌ طُوله يَوْمَ الوغى باعـــي .

أستخلص ممّا سلَفَ أنّ الشعْر في فترة الإمارة تميّز بتفرّد الشعراء بالشجاعة و الفروسية.

و من الشعراء أيضًا نجد أبو المخشّي، و شعره أيضًا من النّسقُ البدوي.[5]و من نماذجه قوله:[6]

و هَمّضَافَني في جوف يَمّ كلا موجَيْهما عندي كبيرُ

فبتْنا و القُلوبُ معلّقــاتٌ و أجنحةُ الرّياح بنا تطيرُ

1-أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة،ص:90.

2-باقر سماكة، التجديد في الأدب الأندلسي،ص:24.

3-محمد عبّاسة، الموشحات و الأزجال الأندلسية ،ص :17.

4-ابن حيّان،المقتبس،124/3،نقلا عن عبّاسة، الموشحات و الأزجال الأندلسية، ص :18.

5-ينظر، احسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة ،الطبعة الثانية،بيروت،1969 :45.

6-ابن السعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق د:شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، ج2،دار المعارف،ص:124.

إنّ أباالمخشى "كان يُمثل الشّعر الأندلسي في فترة تأسيس الإمارة أصْدَق تمثيل ،فهو يمثله في سيْره في هذا الاتجاه المحافظ ذي الملامح البدويّة، و هو يمثله في ظهور تلك السّمات الأندلسية الخاصّة من تجديد لبعض الموضوعات و من تغليب لعنصر العاطفة."[1]

نرى أنّ هذا العصر شهدَ نوْعًا من التجديد مع الحفاظ على بعض التقاليد المميّزة.

ولهذا الشاعر " ابنة شاعرة اسمها حسّانة تعدّ من أولى الشواعر اللّواتي اشتهرنَ بالأندلس، و قد أشبهت أباها في قوَّة العَارضة...،فاستغلت مقدرتها الشعرية للدّفاع عن حقوقها."[2] فلّما مات أبوها كتبت إلى الحكم:[3]

إنّي إلـــيكَ أبَا الـعَاصـي مُـوجعَـةٌ ... أبَا المخشَّشَقَّتْهُ الواكفَ الدّيمُ.

قــد كـنتُ أرتــعُ في نعـماهُ عــاكفةً ... فاليومَ آوي إلى نعماك يا حَكَمُ.

أنـــتَ الإمــامُ الذي انقاد الأنــامُ لهُ ... و مَلّكتهُ مَقَاليدُ النُّـــهى الأُمَمُ .

لا شيء أخْشى إذا ما كنتَ لي كَنَفًا ... آوي إليه و لا يَعــــرُوني العدَمُ.

و شعرُ حُسَّانة بعد ذلك يتّسمُ بالأصالة و الصّدق،ففيه كثير من طبيعة المرأة، في ضعفها و حاجتها إلى الحماية.[4]

مما سبقَ ذكرُهُ نرى أن المرأة كانت تحظى بالمكانة المرموقة في المجتمع الأندلسي ،لأنّها جزءٌ منه.

فمن خلال هذه النماذج نرى أنّ" الشّعر الأندلسي الذي رسَّخَ أصولهُ أناسٌ نبتوا في البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا في حدود سنة (200هـ). و هذه حقيقة هامّة في نشأة ذلك الشعر و في النّماذج التي احتذاها و المجالات التي كان يروّدها."[5]

1-أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلا سقوط الخلافة، ص :100.

2-احسان عبّاس، تاريخ الأدب الاندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص :46.

3-المقرّي، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب،ج167/4.

4-ينظر، أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة،ص:109.

5-احسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة،ص:47.

و نتيجة لذلك "كان الشعر في عهد الإمارة يسيُر بين التَّقليد و التَّجديد و من الملاحظ في هذا العصر ظهور بعض الأراجيز التاريخية التي أصبحت مصدراً من مصادر الدراسات الأندلسية."[1]

أما في أواخر هذا العهد "ابتعد الشعراء عن التَّقليد،فبرزت شخصيّتهُم في شعرهم حتى اخترعوا الموشحات بفضل انتشار الغناء في المجتمع الأندلسي."[2]

من هنا نستنتج أنّ الشّعر الأندلسي في هذه الفَترة بدأ يشهد تطورّا ملحوظا.

3-الشعر في عصر الخلافة:

بدأ عصر الخلافة في الأندلس "باتخاذ عبد الرحمان الثالث لقب الخليفة سنة (316هـ-929م)...،و في عهده شهدت الأندلس نوعا من الرَّفَاهية و الازدهار في شتى الميادين حتّ سُميَّ هذا العصر بالعصر الذهبي للأندلس."[3]

فهذه الفترة كغيرها من الفترات السَّابقة عَرفَت عدّة شعراء مع بعض التغيرات الجذرية. و في هذه الفترة أيضَا"ظهرت الكتب النثرية القيّمة،و لعلَّ أشهرها " كتاب الحدائق" لأبي عمر بن فرج الجيّاني المتوفي سنة (366هـ-976م) و هو شاعر و فيلسوف ألّفَ كتابه المذكور للحكم الثاني،يعارض فيه كتاب " الزهرة " لابن داود الأصفهاني الظاهريّ الذي يعدّ أوّل محاولة للحبّ الأفلاطوني."[4]

يبدو لنا من خلال ما سلف ظهور معارك أدبيّة و معارضات بين الشعراء، حيث تعتبر هذه الأخيرة من الموضوعات المستحدثة في الأندلس.

فمن نماذج شعر أبي الفرج الجيَّانّي قوله:[5]

1-باقر سماكة، التجديد في الأدب الأندلس،ص:25.

2-محمد عبّاسة، الموشّحات و الأزجال الأندلسية، ص :20.

3-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4-المرجع نفسه، ص :21.

5-الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس،ص:109.

و طائفة الوصال عَدَوْتُ عنـــها و ما الـــــشيطانُ فيها بالمـــطَاع

بدتْ في الليل ســــــافرةً فبَاتَت دَيَاجي اللّيل سَافـــــرةَ القنـــاع.

و مامن لحـــظـــــة إلاّ و فيــهاإلى فـــتـن القـلـــوب لها دَواع.

فصلّحْتُ النّهى جمعات شـوقي لأجري في القفاف على طبـاعي.

و من شعراء هذا العهد كذلك نجد" ابنهانيء الأندلسي الذي كان له منزلة كبيرة بالأندلس..." و لهُ شعر مجموع...، و قد خَصَّجُلَّ شعره لمدح السلاطين و الرّثاء ووصف السيوف."[1]

و شعر ابن هانيء يسير في الاتجاه المحافظ الجديد و الذي كان على رأسه بالمشرق في تلك الفترة أبو الطّيب المتنبي.[2]

كما يتميّز شعر ابن هانيء برغم اتجاهه المحافظ ببعض السّمات الفنيّة الخاصَّة أهمها: الحدَّة الشّعرية،و المذهبية السياسيّة، أمّا السّمة الأولى فتَتَّضحُ في شعره و تشمل مضمونهُ و شكلهُ على السّواء.[3]

فمن شعره في وصف سيف:[4]

لي صارمٌ و هو شيعيٌّ كحامله يكادُ يسبقُ كرَّاتي إلى البَطل.

إذا المُعـزُّ معـزُ الـدّين سلّـطهُ لم يرتعب بالمَنَايَا مُدَّةَ الأجل.

و يقول أيضا:[5]

هو السيّفُ سيْفُ الصّدْق أمّا غرارُهُ فغضبٌ و أمّا مثْنهُ فصقيلُ.

1-محمد عبّاسة ، الموشحات و الأزجال الأندلسية و أثرها في شعر التروبادور،ص:27.

2-ينظر، أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ،ص:235.

3-ينظر، المرجع نفسه،ص:236.

4-ابن هانيء الأندلسي، ديوانه ،دار بيروت للطباعة و النشر، بيرووت،306.

5-المصدر السابق، ص :307.

و مما يتَّضحُ لنا أنّ"ابنهانيء حاد في صوّره الشعريَّة،فهو يُوسّعُ رُقْعَتَها و يبرزُ خُطوطَها،و يُظهرُ ألوَانَها ، و لا يَعنيه بعد ذلك أجاءت الألوان صارخَةً أم هادئةً."[1]

يقول مثلا في رجل أكول:[2]

أنْظُرُ إليْه و في التَّحريك تَسْكينُ كأنّما التقَمَت عنه التَّنانــيـــنُ.

ياليْتَ شعْري إذا أومى إلى فمه أحلّفُه لهواتٌ أمْ ميادينُ.

كأنّها و خبيتُ الزاد يُضْــرمـها جهنَّمُ قذفتْ فيها الشَّيَاطينُ

تباركَ الله ما أمــضى أسـنــتَّهُ كأنّما كلُّ فَكّ منها طاحــونُ.

فمن خلال هذه النماذج نستنتج أنّ الشعر الأندلسي في عهد الخلافة تميّز ببعض الخصائص الفنيّة الجديدة،و الذي مَيّزَّ الشعراء الأندلسيّين عن غيرهم.

1-أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ،ص :237.

2-ابن هانيء الأندلسي، الديوان، ص :376.

الفصل الأول:
مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي

1. شعر الطّبيعة
2. الموشّحات الأندلُسيّة
3. الأزجال الأندلُسيّة

الـــمبحثالأول:شعر الطبيعـــــــة

لا يكادُ يخلُو مصدر من مصادر الدّراسات الأندلسية التي ألّفهَا الأُدباء الأندلسيُّون من شعر الطبيعة، حيث راحوا يَصِفون كلّ مَا يتعَلّقُ بها ويتغنّون بخيراتها، لأنّ الطّبيعة في نظرهم سرُّ الحياة ومصدر الوحي والإلهام. وفيما يلي بعض الآراء حول هذا الفن الجديد.

تناوَلَ الأندَلسيُّون في شعرهم جميعَ الموضوعات التي تناوَلَهَا المشارقة مِن مَدْحٍ ورثاءٍ وغزلٍ وخَمْرٍ وَوَصْفٍ "إلاَّ أَنَّهُمْ صَرَفُوا مُعْظَمَ هَمِّهِمْ إلَى الوَصْفِ ولاَسِيَّمَا وَصْفُ الطّبيعة بجَنَائِنِهَا وأَزْهَارِهَا وَمَشَاهِدَ فُصُولِهَا. وَكانت الطّبيعة في نَظَرِهِمْ شَخْصًا حيًّا يُوشُونَ كلَّ مَا يكْتُبون بمَا فِيهَا مِن مَظَاهِرَ جَمَالٍ وَفِتْنَةٍ."[1] حيث أنّه من الفنون الشِّعريّة التي وُجدَت في الأدب الأندلسي، شعر الطّبيعة.

كما تمثلالأندلس"الجناح الأيسر للدّولة الإسلاميّة الفسيحة...، وساعَدت الطَّبيعة الفاتنة هناك عَلَى نضوج الشِّعرِ وحلاوَتِهِ وكان لمجالس الأنسِ والبَهْجَةِ الأثر الكبير في تنوّع أغراض الشِّعرِ وبخاصَّةٍ الوصف، فَوَصَفَ الشُّعَراء الطّبيعة الفاتنة."[2]

ونجد في كتاب الأدب الأندلسي لفوزي عيسى قوله "حبا اللهُ الأندلس طبيعة سَاحِرَة خلاَّبة، فَأَحَاطَتْ بِهَا البحَارُ وَكَثُرَتْ الأنهارُ وانتشَرَت الرّياض والحدائق وَالُمتنَزَّهَات وفَتَنَتهَذه الطّبيعَة الجميلةُ شعراء الأندلس، فأحبّوهَا وتعلّقُوا بهَا وَبَرَعوا في وصفها في لوحات شعريَّة أخَّاذَةٍ."[3]

من هنا نرى أنَّ بلد الأندلس تملك طبيعة مدهشة أسرت عقول شعراء الأندلس وجعلتهم يتغنّون بمناظرها. "فقد كَثُرَت مَظَاهِرُ التَّرَفِ وَتَعَدَّدَت مَشاهِدُ الجمالِ، وشاعت في الحياة الأندلسية ألوان ماديّة اِستَرعَت اِنتباه الشُّعَراءِ، وأَوْحَت إليهم بنقلِها في لَوَحاتٍ من القريضِ. وقد كانت الطّبيعة من أهمِّ مَا جذبَ أنظَارَ الشُّعَراءِ الوَصَّافين."[4]

[1]– حنَّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ص: 939.

[2]– مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، الطّبعة 12، بيروت، لبنان، 2014 9 9: 247.

[3]– فوزي عيسى، الأدب الأندلسي (النّثر، الشعر، الموشحات)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2012 : 21.

[4]– أحمد هيكل، الأدبالأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص: 278.

حتّى إنهم ألّفوا كُتباً في ذلك منها كتاب البديع في وصف الرّبيع لأبي الوليد الحُمَيري.

إنّ من يُقَلّب صَفحات الدّواوين الأندلسيّة، ويَتَتَبَّعُ المجمُوعات الأدبيّة التي انطوت على المختارات الكثيرة من أدب الأندلس "يجدُ أنّ الموضوعات التي كانت تستأثر باهتمام الشُّعَراءِ تَرْجِعُ إلى الطَبيعة...، والشَّاعرُ الأندلسي شديد الارتياح إلى الطّبيعة، شديد الشَّغفِ بهَا. وهي في زَحْمَةِ الموضوعات مَركزُ الالتِفاتِ، ومَنبعُ التَّصوير والتَّزويق."[1]

نستخلص ممّا سبق أنّ شعر الطّبيعة من أهّم الموضوعات الأدبية الأندلسيّة، لذلك نجد نماذج جمّة حول هذا الفن الجليل الذي فاق كلّ الفنون الأخرى، كما تحفل مصادر الأدب الأندلسي ودواوين الشعراء الأندلسيين بأشعار الطّبيعَة.

حيث أنّه قد "عُرِف الأندلسيّون برقّةِ الوصف وَدِقَّةِ التّصويرِ وَشَهُرَ عنهم التَّبريزُ في ذلك والافتتان فيه فكان شعرهم طُرَفَةٌ فنيِّةٌ مُمْتِعَةٌ، جميلة الشَّكلِ نَادِرةُ المثال حَسَنَةُ المنْظَرِ، وكان شعراؤُهُم يُحسنون شِعرَ الوصفِ وَيُحبّونَهُ."[2]

لذلك كان الشِّعرُ يقف على الوصف عندهم "وكادَ بعضُ الشعرَاءِ أن يقصُرَ شعرُهم عَلَى وصفِ الطّبيعة، كما فعل ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح (450-533هـ) الذي عُرِف بصنوبريُّ الأندلس وجنَّان الأَندلس، لأنّهُ خصَّصَ مُعظمَ شِعرِهِ لوصفِ الطّبيعة الأندلسيّة: أنهارهَا وأزهَارهَا."[3]

يقول ابن خفاجة عن الطّبيعة في الأندلس:[4]

يَا أهل أندلسٍ للهِ دَرُّكُــــــــمُ ... مَاءٌ وظلٌّ وَأَنَهارٌ وَأَشجَـــارُ
مَا جنَّةُ الخُــلدِ إلا في ديَارِكُــم ... وَلَوْ تَخَيَّرتُ هَل كُنتُ أَختارُ
لا تَخْتَشُوا بعدَ ذَا أن تدخلوا شَقرًا ... فليسَ تُدخَلُ بعدَ الجَنَّةِ النّارُ

---

[1]- حنَّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص: 940.
[2]- عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص: 117.
[3]- صلاح محمد جرّار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، عمان، ص: 99.
[4]- ابن خفاجة، الديوان، دار القلم، شرح عمر الفاروق الطبّاع، بيروت، ص: 113.

من خلال هذا النّموذج نستنتج أنّ الشاعر عبّرَ عن طَبيعة بَلده بوَصف مُكوّناتها وتشبيهها بالجنَّة. وكان الأندلسيّون يُعجبونَ بشعرِ ابن خفاجة لبراعته في وصف الرّياض والأزهار.[1]

يقول ابن خفاجة:[2]

والرّوضُ وَجهٌ أزهرٌ وَالظّلُّ فرعٌ أسوَدُ والماءُ ثَغرٌ أَشنَبُ

في حيث أطرَبنا الحمَامَ عَشيَّةً فشدا يُغنينا الحمامُ المطربُ

واهتزَّ عِطفُ الغُصنِ في طرَبٍ بنَا وافتَرَّ عن ثَغرِ الهلال المَغرب

فكأنَّهُ والحُسْنُ مُقترنٌ بِهِ طَوقٌ عَلَى بُردِ الحَمَامة مَذهَبُ

وقد "عُمِّرَ الشَّاعِرُ طَويلاً وَأتيحَ لهُ أن يُحقِّقَ هوايتَهُ كمَا نقولُ اليومَ من الالتفات إلى الطّبيعَة، وصَرَفَ الشِّعر والشَّاعريّة إليها والإكثار من ذلك إكثارًا يلفتُ النَّظرَ."[3]

وقد وصفها "فأخلصَ قِطعًا وَقصائدَ لوَصفِهَا، استغراقًا في جُزئيَّاتِهَا، ودُخولاً في تَفصيلاتِهَا."[4]

كما نجد ابن خفاجة يصوّر الطبيعة الأندلسيّة "فيُشَخِّصُهَا وَيُسرِفُ في استخدام التَّشبيهات والاستعارات، وَيمزجُهَا بألفاظِهِ الأنيقةِ المُترفة."[5]

يقول في وصفِ نهرٍ:[6]

للهِ نهرٌ سَالَ في بطحَاءَ أَشهَى وُرُودًا من لَمَى الحَسنَاءِ

مُتَعطِّفٌ مِثلَ السِّوارِ كَأَنّهُ والزَّهرُ يكنَفُهُ مجرُّ سَمَاءِ

قَد رَقَّ حتَّى ظُنَّ قُرصًا مُفرَغًا مِن غِضّةٍ في بُردَةٍ خَضْرَاءِ

[1]- ينظر، سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 212.
[2]- ابن خفاجة، الديوان، ص: 35.
[3]- محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت، ص: 122.
[4]- المرجع نفسه، ص: 125.
[5]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 213.
[6]- ابن خفاجة، الدّيوان، ص: 212 13.

وَغَدَت تَحُفُّ به الغُصُونُ، كأنَّهَا هُدبٌ يَحُفُّ بمُقلَة زرقـــــاءِ
ولــطَالمَا عَاطيتُ فيهِ مُدَامَـــــةً صَفرَاءَ، تخضِبُ أيديَّ النُّدَمَاءِ

فالملاحظ في الأبيات السّابقة أنّ "أبا إسحاق بن خفاجة يرسم هذه الصّورة الشّهيرة الرّقيقة الأنيقة للنّهر فيبدع وَيَرِقُّ وكأنَّمَا يكتبُ أبياتًا غزليّةً في محبوب."[1]

ونجد محقق الدّيوان يصف شعر ابن خفاجة قائلاً "هذه الملامِسُ من الجمال في طبيعة أرضِ النّشأة الأولَى التي انتشى بهَا ابن خفاجة، تستطيعُ أن تطالِعَ سُطُورهَا وصفحاتهَا في شعره الوصفي، وهو أوسَعُ فصول سَفرِهِ الشِّعري وأبوابه، ومنِ هذه الخيوط ومن ريَّا تلكَ الخطَرات، تحوّل وجدان ابن خفاجة إلى ميدان أكثر عمقًا وانفسَاحًا حينَ تغَنَّى بالأندلس."[2]

ويعتبر ابن خفاجة "أشهر شعراء الأندلس في موضوع وصف الطّبيعة، ولعلَّ شِعرُهُ يفيضُ بالمزايا التي تجعَلُهُ في مقدّمةِ شعراءِ العرَب القدامى في هذا الغرَضِ فقد أكثر من وَصفِ الطّبيعة عَلَى اختلاف أنواعِهَا مُعجمًا لُغويًّا وفنيًّا يرجعُ إليه في صناعتهِ الشِّعريّة."[3]

من هنا يمكن القول أنّ ابن خفاجة هو أوّل شاعر أندلسي تغنّى بالطّبيعة، حيث ربط بين الطّبيعة وبين رؤيته الخاصّة للحياة بما فيها من عِضَات وعبر.[4]

فيما يلي وصف بعض مكوّنات الطّبيعة وهو الجبل لابن خفاجة يقول:[5]

بِعيشِك هَل تدري أهوجُ الجنَائِـــب تَخبُّ برَحْلِي أَم ظهور النّجائِـــبِ
فَمَا لُحْتُ في أوْلَى المَشارقِ كَوْكَبًـا فأَشْرَقْتُ حتَى جِبْتُ أخرى المغاربِ
وَحيدًا تَهَادَاني الفَيَـافِي فَأجتـلِـي وُجــــوهَ المَنَايَا في قنَاعِ الغيَاهِــبِ
وَلاَ جَارَ إلاَّ مِن حُسَامٍ مُصَمِّـــمٍ وَلاَ دَارَ إلا في قُتُودِ الرَّكَائـــــــبِ

---

[1]– مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 312.
[2]– ابن خفاجة، الديوان، ص: 06.
[3]– محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 121.
[4]– المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
[5]– ابن خفاجة، الديوان، ص: 47- 48.

ولاَ أُنْسَ إلاّ أُن أُضَاحِكَ سَاعَـةً تُغورُ الأمَانِيَ في وُجوهِ المطَالـب
بليلٍ إذا مَا قُلْتُ قَد بَادَ فانقَضَى تَكَشَّفَ عَن وَعدٍ مِنَ الظَـنِّ كاذِبِ
سَحَبتُ الدَّيَاجي فِيهِ سودَ ذوائـب لأعتَنِقَ الآمَالَ بيضَ ترَائـبِ
فَمَزَّقْتُ جَيبَ اللّيلِ عن شَخْصٍ أَطلَسٍ تَطَلّعَ وَضَّاحِ المضَاحِكِ قاطبِ
رَأَيتُ فيه قَطْعًا منَ الفَجرِ أَغبشًـا تأمّلَ عَن نَـجمٍ تَوَقّدَ ثَاقِـبِ
وأرعنَ طَمَّـاحِ الذؤابة بَـاذِخٍ يُطَاول أعنَـانَ السّمَاءِ بغَـارِبِ

نرى أنّ قصيدة الجبل لابن خفاجة تَتألّفُ من مجموعة من الأقسام المترابطة ترابطًا سَرديًّا حيثُ ينزعُ فيهَا الشَّاعِرُ نَزعَةَ القَاصِّ فيبدأُ القصيدة بمطلَعٍ يُنبّئُ عَن انشغَاله بِقَضيَّةٍ مركزيَّةٍ تُؤرّقُهُ، حينَ يجعَلُ مَطلَعَها عَلَى صُورَةِ تَسَاؤلٍ.[1]

فالبيت الأوّل من القصيدة "مَشحونٌ بالدَّلاَلاتِ التي تُشيرُ إلَا أنَّ تلكَ الرّحلةَ هي رحلةُ الحياةِ ذاتِهَا أو رِحلَةُ الإنسان في الحياة، وهي رحلةُ محفوفَةٌ بالمخاطرِ، وليست هذه الرياحُ الهوجاءُ أو هَوَجُ الجنائبِ إلاّ رَمزًا لمَا يُواجهُ الذّاتَ من مخاطِرٍ."[2]

أمّا في البيت الثاني من قصيدة الجبل "يبدأُ ابن خفاجة في وصفِ رحلته بِبَيتٍ يوهِمُ فيه القارئ أنّهُ يتحدَّثُ عَن رِحلَةٍ لَهُ بَدَأَهَا مِنَ المشرق وجَابَ بِهَا أَقَاصِي المغرب."[3]

كما نجدهُ في البيت الثّالث، يعبّر عن وحدته أثناء الرّحلةِ "إنّ الذّات تبدو مُحَاصَرَةُ بالوحدَةِ تتقاذفها الفَيَافِي، وتَلُوحُ لَهَا وُجوهَ الموتِ في خِضَمِّ الظّلاَمِ."[4]

بالإضافة إلى ذلك "كَثَّفَ ابن خفاجة مُعظَمَ مَصَاعِبَ الرِّحلَةِ ومَخَاطِرهَا، فالبقاعُ المقفرَةُ تَتَهَادَاهُ وَتسَلِّمَهُ كلَّ واحِدَةٍ منها إلى الأخرى، فَيُخيَّلُ لَهُ في كلِّ مَرَّةٍ ضُرُوبٌ مِنَ المَوتِ مُخَبَّأَةٌ له في عِلمِ الغيبِ."[5]

[1]- ينظر، صلاح محمد جرّار، قراءات في الشعر الأندلسي، ص: 100.
[2]- فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 190- 191.
[3]- صلاح محمد جرّار، قراءات في الشعرالأندلسي، ص: 101.
[4]- فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 192.
[5]- صلاح محمد جرّار، قراءات في الشعرالأندلسي، ص: 102.

ومن مَصَاعبِ رحلته التي قَامَ بهَا ابن خفاجة عَدَم وجود الرّفيق وعَدَم توافر المأوى وعدم وجود الأنيس[1]، كما صادفنا في البيتين الرّابع والخامس من القصيدة.

وممّا يَشكُو منه الشَّاعر الجاهلي في رحلَة في العَادة "وشكا منه ابن خفاجة في هذه القصيدة تطاول اللّيل، فاللّيل... هو مصدرُقلقٍ للشاعرِ المرُتحِلِ لأنَّهُ قد يُظِلُّ طريقَهُ أو تُداهمَهُ وُحُوش الصحراء... أَمَّا ابن خفاجة فإنَّهُ لا يشكو من ليلٍ حقيقي، إذ اللّيل عنده رمزٌ للهموم التي يعاني منها في حياتهِ."[2]

وتأتي صورة اللّيل الطَّويل"لتُضيف أبعاداً أخرى إلى أزمَة الذَّات ومُعاناتها."[3] فما اللَّيلُ سوى مرحلة من مراحل حياته يسير بها إلى دَرب الشَّكوى والأنين من غَدر الزَّمن حيثُ "تمثّلَ قَصيدة ابن خَفَاجَة في وصف الجبل تجربة نَفسيَّة عاناها الشّاعرُ فنقلَهَا إلينَا، وتَرجَمَهَا بصدقٍ، إذ تَقدَّمَت به السنُّ وفقَدَ معظَمَ أصحَابِهِ، وأخذَ يشعُرُ بالغربَةِ النّفسيّة وبدنُوِّ الأجلِ...،فَدَبّجَ هذه القصيدة في وَصف الجبل ومناجاته على نَسَقٍ جديد، إذ أَشرَكَ النَّفسَ الإنسانيّة بسرِّ الطّبيعة وهو ما يسمّى ب"حِسّ الطّبيعةِ" فانبرى يصف الجبل وصفًا وجدانيًّا."[4]

لذلك نجد الشاعر ذو الحسّ المرهف والنّفس الأبيّة، قد وجد في الجبل إنسانًا ذا تجارب يتحدّث بما جرى له من أحداث الزّمان.[5]

ويقول ابن خفاجة في ديوانه عن القمر بعنوان قد يبكي الخليل:[6]

لَقَد أَصَختُ إلى نجواك من قَمَرٍ وبتُّ أدلجُ بين الوَعي والنَّـظَرِ

لا أجتلي لَمحًا حتّى أعي مُلحًـا عَدْلاً من الحُكمِ بَينَ السَّمعِ والبَصَر

---

[1]- ينظر، صلاح محمد جرّار، قراءات في الشعر الأندلسي 6: 103.

[2]- المرجع نفسه 3 1: 103.

[3]- فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 192.

[4]- سامي يوسف أبو زيد،الأدب الأندلسي، ص: 271.

[5]- ينظر، محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 125.

[6]- ابن خفاجة، الديوان، ص: 111- 112.

وقد مَلأتُ سَوَادَ العَينِ من وَضَحٍ فقَرَطَ السَّمعَ قُرطَ الأُنسِ مِن سَمَرٍ

هُنا نجدُ الشَّاعِر قد وَقَفَ أمامَ القمَرِ في الخلاءِ وحيدًا أرهَفَ كلَّ حواسِه وأنصَتَ في إصغاءٍ شديدٍ إلى نَجواه.[1]

حيث أنّه "وَجدَ في القَمَرِ عِبراً كثيرةً إن لم يَنطِق بها بِلسَانِ المَقَالِ فقد عَرَضهَا عَلَى الواعينَ من النَّاسِ بلسان الحال."[2]

نستخلص من الأبيات السّابقة أنَّ الشاعِر وجدَ عنصرًا آخرَ من عناصِرِ الطّبيعة غير الجبل ليَبُثَّ شكواه والذي هو القمر، ويطلعنا أحد الدارسين عن ذلك قائِلاً "ونمضي مَعَ ابن خفاجة في خطابه الجديد للقمر الذي يعكسُ لهفَةَ الذّات إلى الأُنسِ والأُلفةِ والطُّمَأنينة في وحدَتها وَشيخوختِهَا."[3]وأخيراً وليس آخرًا"بَرَعَ ابن خفاجة في وصف الطّبيعة بجميعَ مظاهِرها وَمباهجِهاَ بريَّاضِهَا وأشجارِهَا وأزهَارِهَا وأنهارها وجبَالهَا...، وتُعَدُّ قصيدته في وصف الجبل خيرُ أوصافِهِ إذ امتزجت فيها ذاته بالطّبيعة."[4]

كما نجد في خصائص شعر ابن خفاجة كثرة الصّور فيه، فالشَّاعرُ يُتقِنُ صَنعَتَهُ ويميلُ إلى استنباط المعاني، والتّجديد في الأداء واستفراغ الطّاقة في جعل النّص كُلاًّ مُتكامِلاً من اللّفظَةِ المختارة إلى العبارة المحكمة والمعاني الجديدة.[5]

وقد لاحظ ابن خلدون ذلك بقوله "ولهذا شُيوخَنَا رَحِمَهم الله يَعيبُون شعر أبي إسحاق ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحِد."[6]

---

[1]– ينظر، فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 198.

[2]– محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 125.

[3]– فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 199.

[4]–سامي يوسف أبو زيد،الأدب الأندلسي، ص: 216.

[5]– ينظر، محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 126.

[6]– عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله الدّرويش، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، 2004 6 1: 402.

ويَحُثّنَا الباحث رضوان الدّاية أنّ "في شعر الطّبيعة عند ابن خفاجة اتّصال بين تلك الموصوفات وبين نفسِ الشَّاعرِ وعاطفتهِ وتمازُجٌ بين كثير منهَا وبينَ رُؤيتهِ في الكونِ وموقفهِ من الحياة."[1]

ويضيف على ما قاله أنّ "الشَّاعر يتعاطفُ مع مَا يَصِفُ، وكثيراً ما ينقلُ إلى القارئ أحاسيسهُ بجُزئيَّاتِهَا ووقَائعَهَا ويجعل بعض معطيات الطّبيعة سبيلا إلى مُشارَكَةِ وجدانِهِ وتَصوُّرِ ذاته."[2]

فضلا عن ذلك قد "امتزجت الطّبيعة بكُلّ مُعْطياتها بشعر ابن خفاجة، ولازمت ألفَاظُها أسلوبهُ في مقَاصِدِهِ الشعريّة المختلفة، فصارَ يُعبّرُ عن موضوعاتِهِ بالاستنادِ على مفردات وعبارات موصولةُ بالطّبيعة."[3]

وكلّ هذه الصّلة التي كانت بينه وبين الطّبيعة إنّما هي مجرد "نَفْتةِ شاعرٍ طالَ عَهْدُهُ، بالطّبيعَة ومارسَ القول في أفانينها المختلفة مقلّدًا تارةً ومبتكرًا تَارةً أخرى حتى استطاع بعدَ لأْيٍ أن يُنَفِّذَ إلى اللّبَاب من جَوهَر الأشياء وأن يرى في المظاهر الخارجيَّة دلائلَ سَافِرَةً عمَّا يَسْتَكِنُ تَحْتَهَا من مَعَانٍ ورموزٍ! وربّما كان ابن خَفاجَة على استعدَاد أن يُبدعَ في هذا المجال لو رأى من ناقدي عصره من يَشُدُّ على يديه ويُهنّئهُ بمنهجهِ الجديد."[4]

لكن لم يتوقّف شعر الطّبيعة عليه فقط وإنّما كان هناك جمُلة من الشُّعراء، برَعُوا في هذا المجال. فمن الشّعر الأندلسي الذّائع في وصف طَبيعة أرض الأندلُس ونَظر أهلها إليهَا، وعيشهم في ظلالهَا.[5] قول محمَّد بن سفر المريني:[6]

في أرضِ أندلسٍ تلْتَدُّ نَعْمَـاءُ   ولاَ تُفَارِقُ فيهَا القلْبَ سـرَّاءُ

---

[1]- محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 124.

[2]- المرجعنفسه 4 1: 124.

[3]- المرجع نفسه، ص: 126.

[4]- محمد رجب البيّومي، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، إدارة الثقافة والنشر، بالجامعة، 61980 1: 76.

[5]- محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 112.

[6]- المقرّي، نفح الطّيب، ج21 1: 209.

وَليسَ في غيرِهَا بالعيش مُنْتَفِعٌ ولاَ تَقُومُ بحقِّ الأُنسِ صَهبَاءُ

وكيف لاَ يُهَجُ الأبصَارَ رُؤيتُهَا وكلُّ روضٍ بهَا في الوَشي صَنْعَاءُ

أَنْهَارُهَافِضَّةٌ، والمسكُ تُرْبَتُهَا والخزُّ رَوْضَتُهَا، والدُّرُّ حَصْبَاءُ

ويعلّق الأديب سامي يوسف أبو زيد على هذا النموذج بقوله " فقد ألمّ الشاعر بطبيعة الأندلس، إذ وَصَفَهَا وشَخَّصَ مَظاهرهَا واستنطق مُختلف مشاهدها، بأرضها الطّيبة التي تحلو فيها الحياة، فهي ذات أنهارٍ كالفِضَّةِ، وتربةٍ كالمِسك، ورَوضَةٍ كالحرير، وحصى كالدُّر."[1]

كما يقول آخر "وهو شعر رقيق، يَنْضَحُ بمحبَّةِ الأندَلس، والأُنْسِ بما فيها من جمال الطّبيعة ويستطردُ إلى ذِكرِ محاسِنِهَا، من وراءِ نَظرَةِ الإعجابِ بالأرضِ والتَّمسُّكِ بالوطنِ."[2]

ويمضي بنا شاعرٌ آخر ليصف جمال الطّبيعة في الأندلس حيث انتهت إليها المحاسِنُ وبَدَت قُصورُهَا البَيضاء كالكواكِبِ وتُربتُهَا الموشَّاةُبالأزهَارِ كالسَّمَاءِ المُزدانَةِ بالنُّجُومِ وكأنَّهَا جنَّةُ الحُسْنِ.[3]

يقول:[4]

للهِ أندلُسٌ ومَا جَمَعت بِهَا مِن كلّ مَا ضَمَّت لَهَا الأهواءُ

فكأنَّمَا تلكَ الدِّيارُ كَواكِبُ وكأنَّمَا تلكَ البِقاعُ سَمَاءُ

وبِكلِّ قُطرٍ جَدوَلٌ في جنَّةٍ وَلَعَت بِهِ الأفياءُ والأندَاءُ

ومنه فإنَّ الطّبيعة الأندلسيّة ترتبط في أذهانِ الأندلسيّين بالبهجة والمسرَّة، فالميّاه الجاريَّة الرَّقراقة والقُصُورُ الفخمة والظّلالُ الوارفَةُ، والطّيور المغرّدةُ تبعَثُ على الطَّربِ والنَّشوةِ والارتياح.[5]

[1]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 80.

[2]- محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 113.

[3]- ينظر: فوزي عيسى،الأدب الأندلسي، ص: 22.

[4]- المقرّي، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، ج1 31 1: 226- 227.

[5]- ينظر، فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 22.

يقول أحد الشُّعراء أيضًا:[1]

حَبَّذَا أنـدلسٍ مِن بَلَـدٍ   لَم تَزَل تُنْتِجُ لِي كلَّ سُرُور
طائِرٍ شَاذٍ، وظِلٌّ وَارِفٌ   ومِيَاهٌ سَائحَاتٌ وقُصُـور

وقال آخر:[2]

يَا حُسنَ أندَلُس وما جُمِعَت لنَا   فيهَا منَ الأوطَارِ والأوطَانِ
تلك الجزيرةُ لَسْتُ أنسى حُسْنَهَا   بِتَعَاقُب الأحيانِ والأزمَـانِ
نَسَجَ الرَّبِيعُ نَبَاتَهَا من سُنْدُسٍ   مَوْشِيّةٌ بِبَـدَائِعِ الألـوَانِ
وغدَا النّسيمُ بِهَا عَليلاً هَائِمًا   بِرُبُوعِهَا وتلاَطَمَ البَـحرَانِ

من خلال المقطع الشّعري السابق يرى فوزي عيسى أنّ الشاعر "وظّفَ عُنصُرَ "التَّشخيص" فتخيَّلَ النَّسيمَ هَائِمًا بجمَالِهَا."[3] ليوضّح للقارئ عن مدى تعلّقهِ بطبيعة وطنِهِ. ويُعبّرُ ابن الزَّقاق* عن جمال الطّبيعة في مدينته بَلنسيَّةَ حيثُ يقول:[4]

بَلَنسيّةُ- إذَا فَكّرْتُ فيـهَا   وفي آياتهَا أسنَى الـبلادِ
وأعظَمُ شَاهدي منها عليهَا   وأنَّ جمالها لـلعَينِ بَادي
كَسَاهَا رَبُّهَا دِيبَاجَ حُسـنٍ   لَهُ عَلَمَانِ من بحرٍ وَوَادي

فالشّاعر يصف جمال مدينته بلنسيّة باعتبارها قُرَّةَ عينه وملاذهُ الآمن، حيث "أدرك الأندلسيّون أنّ اللهَ أنعَمَ عليهم بتلك الطّبيعة السّاحرة والجنان الوارفة فتعلّقُوا بها وفُتِنُوا بجمالِهَا، وَفضَّلوها على سائرِ الأقطار، وكان هذا الاتجاه إلى عشق الطّبيعة...، انعكاسا للشعور الوطني في نفوس الأندلسيّين، وَتعبيراً عن نزعةٍ أندلسيّة قويّةٍ."[5]

[1] - المقرّي، نفح الطّيب، ج1 . .: 227- 228.
[2] - المصدر نفسه ج1 ص: 228.
[3] - فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 23.
*هو أبو الحسن علي بن عطيّة المعروف بابن الزّقاق البلنسي، ولد في بلنسيّة نحو سنة 490هـ، انظر الجامع في تاريخ الأدب لحنّا الفاخوري، ص: 977.
[4] - المقرّي، نفح الطّيب، ج1 . : 180.
[5] -فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 26.

وقال إحسان عبّاس مُبديًّا رأيهُ عن هذا الفن"تلكهذالذّروةُ التي وَصَلَهَا شعرُ الطّبيعَة في الأَندلُس، ومَرَدُّهَا في الأَكْثَر إلى التَّكوين النَّفسي للفَرد الذي مارسَ هذا اللَّوْنَ من الشِّعرِ."[1]

وهكذا شَغَلَت البيئَةُ الأندلسيّةُ الشعراءَ والكُتَّابَ، ولفَتَت أنظارَهُم إلى مَوجودَاتِهَا، ومجَالِي محَاسنِهَا، وَسَيطَرَت على عُقولِهِم وعَوَاطفِهِم، وجَذَبتهُم إلى عَالم الابتكار وحُسن الصَّنيع.[2]

ومن هنا "وأيًّا كان الأمرُ، فقد استمدَّ الأندلسيّونَ منَ المشارقة في هذا الفن وغيرِهِ من فنونِ الشّعرِ، ثمَّ تَوسَّعُوا في موضوعاتِهِ وأجادُوا في أَوْصافِهِم وتفَنَّنُوا في أساليب تَعبيرِهِم."[3]

ومن كلِّ ما تَقَدَّمَ نَرَى أنّ للطّبيعة "ميدَانًا عريضًا في فنِّ الوصفِ الشِّعري خاصّة، فقد كانت مَنبَعًا غَنِيًّا لاستخراج الصّورِ والتّشبيهات وأُفُقًا رَحبًا لتَخليقِ الخيال، وَمَصدَرًا مُهِمًّا للاستلهام والإستحاء."[4]

وعليه فقد حَظيت الطّبيعة الأندلسيّة بذلك القدر من الاهتمام من قبل الشعراء لأنّها بالنّسبة إليهم كلاً متكاملاً من مظاهر الحسن والجمال، فكانت محلاً للاختلاء بالنّفس البشريّة وفرصةً لتكوين الشَّخصيّة والسّير قُدُمًا نحو الإبداع.

وفي ختام هذا البحث يمكن القول أنّ شعر الطّبيعة بالأندلس قد خطا نحو التّجديد عدّة خطواتٍ مع ابن خفاجة وغيره من الشُعراء فأتحَفَ الأدب العربي ببعض الطّريف من الجديد.[5]

---

[1]- إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، الطّبعة الثانية، دار الشروق، عمان، 1997 :: 172.

[2]- ينظر، محمد رضوان الدّاية، فيالأدب الأندلسي، ص: 120.

[3]- سامي يوسف أبو زيد،الأدب الأندلسي، ص: 96.

[4]- محمد مجيد السّعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحّدين بالأندلس، دار الرّاية، الطبعة الثالثة، عمان، 2008 : 132.

[5]- ينظر، محمد رجب البيُّومي، الأدب الأندلسي تأثير وتأثر، ص: 78.

المبحث الثاني: الموشّحات الأندلسيّة.

تعتبر الموشّحات من الفنون الشعريّة المستحدثة التي أثارت اهتمام الباحثين والنّقّاد في الأدب الأندلسي، لذلك نجد الكثير من الكتّاب قد ساهموا في البحث عن أصلهِ ونشأتهِ وعوامل ازدهارِهِ.

1) تعريف الموشّح:

أ- لغة:جاء في المعجم المحيط للفيروز أبادي تعريف الموشح كما يلي "الوشاحُ بالضَّمِ والكَسرِ: كِرسَانٍ من لؤلؤٍ وَجوهَرٍ منظومَانِ يُخَالَفُ بينَهُمَا، معطُوفٌ أَحَدُهُما عَلَى الآخر، وأديمٌ عريضٌ يُرَصَّعُ بالجوهَرِ، تَشُدُّهُ المرأَةُ بين عَاتِقهَا وَكَشْحَيهَا، ج: وشحٌ وأوشِحَةٌ ووشائِحٌ وقد توشّحتِ المرأةُ واتَّشحت ووَشَّحتُهَا تَوشِيحًا."[1]

كما ورد في لسان العرب لابن منظور، الوشاح هو "حُليٌّ النّساءِ كِرسانِ من لؤلؤٍ وَجوهَرٍ منظومَانِ يُخَالَفُ بينَهُمَا، معطُوفٌ أَحَدُهَمَا عَلَى الآخر، تتوشّح المرأةُ به، ومنه اشتقَّ توشَّح الرجل بثوبه".[2]

من هنا نرى أنّ علماء اللّغة قد اتَّفَقُوا على أنّ الوشاح ما تتزيَّنُ به المرأة من رِداءٍ.

ب- اصطلاحا: يذهب أبو هلال العسكري إلى التّعريف الموالي للموشّح "سُمّيَ هذا النّوع التوشيحُ، وهذه التَّسمية غير لازمة بهذا المعنى، ولو سمّيَ تبييناً لكان أقرَب، وهو أن يكون مبتدأ الكلام يُنبّئُ عن مقطعِهِ، وأوَّلُهُ يخبرُ بآخِرِهِ وصَدرُهُ يَشْهَدُ بعَجزِهِ."[3]

يتّضح لنا ممّا سبق أنّ أول الكلام لابدّ أن يليه آخره، وأينما حلَّ صدره يجب أن يتبعه عجزه إذ لا يجب الاستغناء عن هذه المكوّنات.

ويعلّق أحد الدّارسين على هذا الطّرح قائلا "ولعلّ هذه التّسميّة البديعيّة أقرب إلى التَّسميّة الأندلسيّة، ففي بعض الموشَّحات المديحيّة يبدأ الوَشَّاحُ بالغَزَلِ وينهي الموشّحة بالغزل أيضًا، وفيها

---

[1]- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص: 1754.

[2]-ابن منظور لسان العرب ، المجلد الثاني ، دار صابر بيروت ص :632

[3]- أبو هلال العسكري، الصّناعتين، تحقيق محمد علي البجاوي، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربيّة، 1952 6 2: 258.

جميعًا تُنبّئُ قوافي المطلع بقوافي الأقفال وعدد أسطرِ البيت الأوّل تنبّئُ بعدد أشطر الأبيات الأخرى."[1]

ويضيف أبو هلال العسكري "وخيرُ الشِّعرِ مَا تسَابقَ صُدُورَهُ وأعجازه، ومَعَانيهوألفاظهُ، فتراهُ سَلِسًا في النِّظَامِ، جاريًّا علَى اللّسَانِ، لايتنافى ولا يتنافر، كأنّهُ سبيكةٌ مُفرَغَةٌ أو وَشِيٌ مُنَمنِمٌ، أو عِقدٌ مُنَظَّمٌ من جوهرٍ مُتَشَاكِلٍ مُتَمَكّنُ القوافي غيرُ قَلِقةٍ، وثابتةٌ غيرُ مَرِحةٍ، ألفاظُهُ مُتطَابقَة، وقوافيه متوافقة ومعانيه مُتعَادِلة."[2]

كما نجد ابن خلدون من المهتمّين بالموشّح حيث يقول في مُقدِّمته "وأمّا أهل الأندلس، فلمّا كثُرَ الشِّعرُ في قُطرِهِم، وَتَهَذَّبت مناحيه وفُنُونَهُ، وبلغَ التَّنميقُ فيه الغايةُ، استحدث المُتأخِّرُون مِنهُم فنًّا سمُّوهُ بالموشَّحِ يُنَظِّمُونَهُ أسمَاطًا أسمَاطًا وأغصانًا أغصانًا، يكثرونَ مِنهاَ ومن أعاريضِهَا المُختلفةِ، ويُسمُّون المُتعَدّدَ منهَا بيتًا وَاحِدًا. ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصانِ وأوزانَهَا مُتَتَاليًّا فيما بعد إلى آخرِ القِطعَة."[3]

من خلال كلام ابن خلدون نستنتج أن المُوَشَّح فنٌّ مُستحدثٌ قد أكثرُوا منه. لذلك يُعدُّ ظُهورُ الموشَّحِ في الأندلس من أهَمِّ ثِمارِ التّجديد الذي عَرَفَهُ الشِّعرُ العربي.[4]

ويُشيرُ ابن بسّام في الذّخيرة قائلا "وهي أوزانٌ كَثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغَزَلِ والنَّسيب تَشُقُ على سماعِهَا مَصُونات الجيُوب بل القلوب. وأوّل من صنع أوزان هذه الموشّحات بأفُقِنَا واخترع طريقتها- فيما بلغني- محمد بن محمود القبريّ الضّرير."[5]

ويذكر ابن بسّام أنّ مُخترعها "كان يصنعها على أشطار الأشعار. غير أنّ أكثرُهَا على الأعاريض المُهمَلة، غير المستعمَلَةُ يأخذُ اللّفظ العَاميّ والعَجَمي."[6]

---

[1]- محمد عبّاسة، الموشحات والأزجال الأندلسيّة وأثرها في شعر التروبادور، ص: 47- 48.

[2]- أبو هلال العسكري، الصّناعتين، ص: 258.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، الجزء الثاني، ص: 425.

[4]- ينظر، محمد عبّاسة، الموشّحات والأزجال الأندلسيّة وأثرها في شعر التروبادور، ص: 48.

[5]- ابن بسّام، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د: إحسان عبّاس، المجلّد الأوّل، دار الثقافة، بيروت، 1997 5 4: 469.

[6]- المصدر نفسه، ص: 469.

ولعلّ أبرزَ تعريف للموشّح نجده عند الكاتب ابن سناء الملك قائلا "الموشّح كلامٌ منظومٌ على وزنٍ مَخصوصٍ. وهو يتألّفُ في الأكثر من ستّةِ أقفال وخمسةِ أبياتٍ ويقالُ لَهُ التَّام، وفي الأقلّ من خمسَةِ أقفالٍ وخمسةِ أبيات ويُقال لَهُ الأقرَع. فالتّام ما ابتدئ فيه بالأقفال والأقرَع مَا ابتدئ فيه بالأبيات."[1]

فالتَّعَاريف التي جاءَ بها هؤلاء الباحثون مُتعدِّدةٌ لكن ليس معنى ذلك أنَّ الموشَّح لونٌ قائمٌ بذاتِه لا علاقة له بالشِّعرِ العربي، بل هو ضَربٌ من ضرُوبِه لا يختلف عن القصيدة التَّقليديّة إلاّ في تعدُّدِ قوافيه وتنوُّعِ أوزانِه أحياناً وفي الخرجة التي يخرجُ بهَا الوشَّاحُ من الفصيح إلى العامّي.[2]

إضافة إلى التّعريف الذي جاء به شوقي ضيف أنَّ الموشَّحة

"تتألّفُ من قفلٍ يُسمّى مركزًا، وتتعدّدُ أجزاؤهُ أو شُطُورُهُ، ويليه غُصنٌ متَعدّدُ الأجزاءِ أو الشُّطورِ، وبينمَا تتَّحدُ أجزاءُ الأقفال التّاليةِ مع الأجزاء المقابلة لها في القفل الأوّلسواءٌ في الوزن أو القافيَّة تَختَلِفُ أجزاءُ الأغصانِ التّالية مع أجزاء الغصنِ الأوّل في قافيته."[3]

يبدو لنا من هذا التعريف أنّ الموشّحة تتكوّن من عدّة أجزاء وأغصان.

وبذلك تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشّطور، مجموعة تتَّحِدُ أجزاؤُهَا المُتقَابلة في الأقفال المُتعَاقِبةِ في الوزنِ أو القافية، ومجموعة أخرى تتّحدُ أجزاؤُهَا في الوزن وَحدَهُ دون القافية فإنَّهَا تتخالَفُ فيهَا دائمًا – وبهذه الطّريقة – يُشبهانِ الوشاح.[4]

ويُشير حكمت علي الأوسي في كتابه فصول في الأدب الأندلسي أنّ الموشّح "هو في الاصطلاح الأدبي نوعٌ من النَّظمِ يتألّف من فقراتٍ تُسَمَّى أغصَانًا هي عبارة عن أشطارِ أبيات شعريّة بعَدَدٍ مُعيَّنٍ وقافية واحدة، ويعقُبُ كلَّ فقرةٍ قُفلٌ مُكوَّنٌ من أشطارٍ في نفسِ البَحرِ ولكنَّهُ بقافيةٍ مُختلفةٍ تلزَمُ في كلِّ الأقفال، أمّا الأغصان فقوافيها قد تختلِفُ ولكنَّهَا لاَ تكون إلاّ من نفس البحر."[5]

[1]– ابن سناء الملك، دار الطّراز في عمل الموشّحات، تحقيق. د: جودت الرّكابي، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق، 1980 : 32.
[2]– ينظر، محمد عبّاسة، الموشحات والأزجال الأندلسيّة، ص: 50.
[3]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدّول والإمارات في الأندلس، ص: 146.
[4]– ينظر المرجع نفسه، ص: 146.
[5]– حكمت علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، ص: 122.

ويرى آخر أنّ الموشَّحات "فنٌّ جديدٌ في شعرِ المُتقدِّمين استنبطَهُ أهلُ الأندلس وَسَمُّوهُ مُوَشَّحًا لِمَا فيه مِن الصَّنعَةِ والتَّزيينِ؛ فكَأَنَّهم نَظَرُوا إلى وِشَاحِ المرأةِ وما فيه من ترصيع وتكريسٍ، وَتفصيلٍ فشبَّهُوهُ بهِ في أسمَاطِهِ وأبياتِهِ وأقفالِهِ."[1]

2) مُخترع المُوشَّحات:

تعدّدت وجهات نظر الباحثين حول مخترع الموشَّحَات ،فقد وردَ في دخيرة ابن بَسَّام أنّ مُخترعَها هو محمد بن محمود القَبَري الضَّرير، وذكرَ أنّ ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد" أوّل من سَبَقَ إلى هذا النّوع من الموشَّحَات عندنا. ثمَّ نشَأَ يُوسُف بن هارون الرَّمادي فكانَ أوّل من أكثَرَ فيها من التَّضمين في المراكيز.[2]

ويرى ابن خلدون أنّ "المخترع لها بجزيرة الأندلس مُقدَّم بن مُعَافى القبري... من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني... فكان أوّل من بَرَعَ في هذا الشأن عُبادة القزّاز شاعرُ المعتصِم بن صَمَادح صاحِبُ المريّةِ."[3]

ويرى مصطفى الشّكعة أنّ "المؤلّف الفعلي لفنِّ الموشّحات الذي وَصَلَ إلينَا هو أبو بكر عبادة بن ماء السّماء المتوفي سنة 422هـ، أي أنّه عاش في الشطر الأخير من القرن الرّابع وشطرًا من القرن الخامس هجريّين."[4]

3) أصل الموشّحات ونشأتها:

لقد اختلف جمهور الباحثين والأدباء حول نشأة الموشّح حيث يذهب الأديب أحمد هيكل إلى أنّ "الموشَّحات قد نشأت في الأندلس أواخر القرن الثالث هجري (التّاسع ميلادي) وكانت نشأتها في تلك الفترة التي حَكَمَ فيهَا الأميرُ عبد الله، وفي هذه السّنين التي ازدهَرَت فيها الموسيقى والغناء."[5]

---

[1]- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر ،الإنبعات، دار نظير عبّود، بيروت، ص: 158.

[2]- ينظر، ابن بسام، الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص: 469.

[3]- ابن سعيد المقتطف من أزاهر الطرف، نقلا عن مقدمة ابن خلدون، المجلّد2 9 4: 425.

[4]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 373.

[5]- أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص: 143.

ويرى آخر أنّه قد "أجمَعَ الأقدَمونَ على سبق أهلِ الأندلس في استحداثهم هذا الفن، فَوَضَعُوا لَهُ أصُولَهُ، وأرسُوا قواعِدَهُ، ومَهَّدُوا لمن بَعدَهُم الطّريق للنَّظمِ فيه."[1]

فمن خلال هذه الآراء المتبادَلَة بين الباحثين نستخلص أّنّ الموشّح برز في الأندلس؛ بمعنى أنّهُ لم يُعرَف في صورته النّاضجة المكْتَمَلَةُ إلاّ عَلَى هذهِ الأرض وليسَ في هذا الرّأي مَا يَتعارضُ والقَول بأنَّ هُناك أعمالاً ظهَرَت بالمشرق يَعدُّونَها بمثابة الإرْهَاص أو التَّمهيد لظهور هذا اللَّون الجديد.[2]

فضلاً عن ذلك فقد "كانت نشأة المُوشّحات استجابة لحاجةٍ فنّية أوّلاً ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانيًّا."[3]

يبدو لنا من خلال هذا الرأي أنّ الموشّحات جاءت من أجل تغيير شكل القصيدة القديمة، كَمَا أنَّ الطّرب والموسيقى لهُما الدّور الأساسي في نمو الموشّحات، وَيُظَنُّ أنَّهُ كان لاتساع مَوجَة الغناء والموسيقى منذ زرياب* في عهد عبد الرحمن الأوسط أثر كبير في نشوء الموشَّحَةِ بقصدِ الغناء بهَا مَعَ العَازفين.[4]

ويَتّجه الأستاذ عبد الحميد بن سلامة بن زيد اتجاهًا آخر مَفَادُهُ "أن تكون عوامل مُتَضَافِرَة قد سَاعَدَت على نشأتِهِ أهمُّهَا التَّفَنُّن العَروضي، وأغنيَّة شعبيَّة رَائجة تَأثَّر بهَا الوَشَّاحونَ الأوائل فَضَمَّنُوهَا خَرَجَاتِهِم تارةً واستوحوا منِهَا بنية الموشّح ووزنه أخرى."[5]

وبفضل هذا فإنّ الموشّحات قد "وَجَدَت رُوَاجًا كبيراً في أوساطِ الأمراءِ والحُكّامِ وكانت في حقيقتهَا تَعبيراً عن شخصيّة الأندلس الفنيّة واستقلالها الأدبي."[6]

---

[1]- عبد الفتاح داود كاك، الموشّحات الأندلسيّة (نشأة وتطوّر، تأثير وتأثّر)، دراسة وصفيّة تحليليّة، 2015 : 08.

[2]- محمّد زكرياّ عنّاني، تاريخ الأدب الأندلسي دار المعرفة الجامعيّة1999 : 167.

[3]- أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص: 143.

[4]- ينظر، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدّول والإمارات بالأندلس، ص: 146- 147.

* هو من الواردين على الأندلس من المشرق رئيس المغنّين أبو الحسن علي بن نافع الملقّب بزرياب، انظر، نفح الّطّيب، 122/3.

[5]- عبد الحميد سلامة بن زيد، خصائص الإيقاع في الموشّحات العربيّة، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 22009 1: 38.

[6]- فوزي سعد عيسى، الموشحات والأزجال الأندلسيّة في عصر الموحّدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 21990 1: 11.

وبالتّالي كان هذا الفن يُمثّلُ تَمَيُّزَ الشعراء الأندلسيّون عن غيرهم، ولكن ليس معنى هذا أنَّ الموشّحات ظاهرة مُستقلّة لا علاقة لها بالشعر العربي، فمُؤلّفوا الموشّحات هم شعراء عرب، وهذه حقيقة لم ينكرها حتّى المسْتَشرقونَ المُنادُونَ بأنّ في الموشّحات عناصر اسبانية مَحليّة.[1]

ويبقى السؤال مطروحًا والنّقاش قائما حول الأصول الأولى لهذا الفنّ، فعلى حسَب رأي الباحث زكريا عنّاني؛ أنَّهُ كان هناك جدل حول النّص الشهير:

أَيُّهَا السّاقي إليك المُشتَكَى　　　دَعَونَاكَ وإن لَمْ تَسْمَعِ

فهذه الموشّحة نُسِبت في بعضِ الأحايين لعبد الله بن المعتز (توفي سنة 295هـ) وهو- كما نعرف جميعا- شاعرٌ عبَّاسي مشرقي لا علاقة له بالأندلس لا من قريب ولا من بعيد.[2]

فقد وَرَدت الموشّحة المذكورة خطأ في ديوان ابن المعتز، فاستغَلّهَا المشارقة المحدثين في دراستِهم للجزم بمشرقيّة الموشّحات، لكن كما لاحظ جلّ الباحثين أنّ هذه الموشّحة، نُسِبَت في العديد من المَصَادر العربيَّة إلى بكر بن زهر الأندلسي.[3]

وجاءت موشّحة ابن زهر في كتاب جيش التوشيح كما يلي:[4]

أيّهَا السّاقي إليك المُشتكَى　　　قد دَعَونَاكَ وإن لَمْ تَسْمَعِ

وَنَديمٌ هِمْتُ في غُرَّتِـهِ
وَسَقَانِي الرَّاحَ مِن رَاحَتِهِ
فإذا مَا صَحَّ مِن سَكْرَتِهِ

جَذَبَ الزِّقَ إليهِ واتَّكَـى　　　وَسَقَانِي أَربَعًا في أربَعِ

من هنا نستنتج أنّه قد اختلفت الآراء حول أصل ونشأة الموشّح بيدأنّهُ — قد ذَهَبَ جلُّ الباحثين إلى أسبقية أهل الأندلس لاختراع هذا الفن ففي رأي الأديب الشّكعة أنّه "مَا كَادَ القرن

[1]- ينظر، محمد زكريا عنّاني، الموشّحات الأندلسيّة، عالم المعرفة، العدد31، الكويت، 1980 5 2: 18.

[2]- المرجع نفسه، ص: 14.

[3]- ينظر، محمد عبّاسة، الموشّحات والأزجال الأندلسيّة وأثرها في شعر التروبادور، ص: 52.

[4]- لسان الدّين بن الخطيب، جيش التّوشيح، تحقيق هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ص: 202.

الرّابع الهجري يؤذّنُ بالمغيب حتّى كانَ فنُّ المُوشَّح قد أصبَحَ من الفُنون الذّائعة الرّائعة في دنيا الأدب الأندلسي."[1]

وبنَاءً عليه يمكن القول أنّ الموشّح شهِدَ تطوّراً ملحوظًا في أواخر القرن الرّابع هجري وبداية القرن الخامس هجري، ومن ذلك الحين ذاع صيتُهُ في الأندلس واكتمل في هذه الأرض.

4) الجوانب الفنّية للموشّح:

4-1 أنواع الموَشَّح:

أ- الموشّح التّام: هو الموشّح الذي يبدأ بقفل أو برأسٍ أو بمذهبٍ.[2]

ب-الموشّح الأقرع: هو الموشّح الذي يخلو من القفل الأوّل.[3]

*فمثال التّام موشّح الأعمى وهو (الذي سَارت به الرّكبان):

ضَاحِكٌ عَن جمَان سَافِرٌ عَن بَدر ضَاقَ عَنهُ الزّمَان
وَحوَاهُ صَدرِي

فهذا الموشّح ابتُدِئَ بِقُفله.[4]

*ومثال الأقرع:

سَطوَةُ الحَبيب أحلى من جنَى النّحل
وَعَلَى الكَئيب أن يَخْضَعَ للذّل
أنا في حُروب مَعَ الحَدِقِ النُّجل
ليسَ لي يَدَن بأحورِ فَتَان مَن رأى جُفوُنَهُ فقد أفْسَدَت دِينَهُ

(فهذا المُوَشّح ابتُدِئَ بِبَيْتِه.)[5]

---

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص: 374.

[2]- عبد الحميد سلامة بن زيد، خصائص الإيقاع في الموشّحات العربيّة، ص: 38.

[3]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[4]- ابن سناء الملك، دار الطّراز في عمل الموشّحات، ص: 32.

[5]- ابن سناء الملك، دار الطّراز ص : 32- 33.

4-2- أجزاء المُوَشّح:

تبايَنَت الآراء حول بناء الموشّح، حيث يذهَب الأستاذ محمد عَبَّاسة قائلا"يتكوّن الموشّح من عدّةِ أقسَامٍ وهي وحدات فنّية محكمةٌ يَنْهَجُهَا الوَشّاح لتَأديَّة إيقاعات نَغَميّة مُنسَجِمَة. ولَم يُشيرَ أحَدٌ مِنَ الوَشَّاحينَ الأندلسيّينَ الأوَائلِ إلى تَسميَّة أقسَامِ مُوَشَّحَاتِهم."[1]

بَيدَ أنَّ المُوَشَّحَة هي غير القصيدة التّقليديّة وذلك أنَّ "المُوَشَّحَةُ مَنظومة غنائيّة، لا تَسيرُ في موسيقاها عَلَى المنهج التَّقليدي، الملتزم لوحدَةِ الوزنِ ورتَابَةِ القافيّة وإنَّمَا تعتمِدُ عَلَى منهج تجديدي مُتحرِّر نَوعًا؛ بحيثُ يَتَغَيَّرُ الوَزنُ وتَتَعَدَّدُ القافيّة، ولكن مَعَ التزام التَّقابل في الأجزاء المُتَمَاثِلَةُ."[2]

حيث نجد آراء معتبرة حول تسميّة هذه الأجزاء، ولَعَلَّ كتاب دار الطّراز لصاحبه ابن سناء الملك أكبر دليل ومرشد لهذه المصطلحات، وذلك بناءً عَلَى قولِهِ "وَلَم أرَ أحَدًا صَنَّفَ في أصُولِهَا مَا يكُونُ للمتعلّمِ مثالاً يُحتَذَى وَسَبِيلاً يُقْتَفَى."[3]

وللتَعَرُّفِ عَلَى هذِهِ الأجزاء، سَنرِدُ بعض النّماذج من الموشّحات، كقول ابن زهر في موشّحته المذكورة سابقاً:[4]

أيُّهَا السَّاقي إليكَ المُشتَكَى　　　قَد دَعَونَاكَ وَإن لَمْ تَسْمَعِ

وَنَديمٌ هِمْتُ في غُرَّتِــهِ

وسَقَاني الرَّاح مِن رَاحَتِه

فَإذَا مَا صَحَّ مِن سَكْرَتِـهِ

جَذَبَ الزِّقَ إليهِ واتّكَـى　　　وَسَقَانِي أربَعًا مِن أربَعِ

غُصنٌ بَانَ مَالَ من حيثُ استَوى

بَاتَ مَن يَهوَاهُ مِن خَوفِ النَّوى

[1]- محمد عبّاسة، الموشّحات والأزجال الأندلسيّة، ص: 61- 62.

[2]- أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص: 139.

[3]- ابن سناء الملك، دار الطّراز في عمل الموشّحات، ص: 31.

[4]- لسان الدين بن الخطيب، جيش التّوشيح، ص:202 - 203- 204.

قَلَقَ الأحْشَاءِ مَهضُومَ القــوى

كُلَّمَا فَكَّرَ فِي البَيـنِ بَكَى مَالَهُ يَبكِي لِمَا لَم يَقَــع

مَا لِعَينِي غَشِيتُ بالنَّظـرِ

أنكَرتُ بَعدَكَ ضَوْءَ القَمَر

فَإذَا مَا شِئت فاسمع خَبري

شَقَيْتُ عَيْني من طُولِ البَكَا وَبكى بَعضي عَلَى بعضي مَعِي

ليسَ لي صَبْرٌوَلا لي جلد

يا لقومي عَذِلوا واجتهدوا

انكِرُوا شكْوَايَ مِمَّا أجِـدُ

مثل حالي حَقَّها أن تَشتَكي كَمَدُ اليأسِ وَذُلُّ الطَّمَــعِ

كَبدي حُرِّي وَدَمْعِي يَكُف

يُعرَفُ الذّنبُ ولاَ يُعتَرَف

أيُّهَا المغرُور عَمَّا أصِف

قَدْ نَمَا حُبُّكَ فِي قَلبي وَزَكا وَتَقُلِ أنِّي فِي حُبِّكَ مُـدَّعي

فهذِه المُوَشّحة تَامَّة تتألّف من سِتَّة أقفال وخمسة أبيات كما تبدأ بمطلع وأغصانٍ وتنتهي بخرجةٍ تكون من نفس القافية (ع) وتتمثل أجزاء هذهِ المُوَشَّحة كالآتي:

1) المطلع: أو المذهب "كلاهُما اصطلاح يُطلقُ على مطلَعِ المُوَشّحةِ الذي يتكوّنُ عادةً من شطرين أو أربَعَةِ أشطُرٍ."[1]

وبناءً على هذا التَّعريف فإنَّ مطلع مُوَشّحةِ ابن زهر المذكورة آنفًا هي:

أيُّهَا السَّاقي إليك المُشتَكَى قَد دَعَونَاك وإن لَمْ تَسمَعِ

---

[1]– مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 376.

2) الدّور: عرّفهُ سامي يوسف أبو زيد أنّه "الجزء الذي يأتي بعد المطلع وقبل القفل، ويتألف من ثلاثة أقسام فأكثر بشرط أن تتكَرَّرَ بالعَدَدِ نفسهِ في بقيّة الموشّح وأن تكونَ من وَزنِ المطلع ولكن بقافيّة مختلفة عن قَافيّتِه وتَلتَزِمُ في أشطُرِ الدَّورِ الوَاحِد."[1]

ويتمثّل الدّور في الموشّحة المذكورة إذن كالآتي:

وَنَديمٌ همَّت في غُرَّتِـه
وَسقَاني الرَّاحَ مِن رَاحَتِه
فَإذَا مَا صَحَّ مِن سَكرَتِـه

فهذَا الدّور يتكوّن من ثلاثة أقسام كما جاء في التعريف السّابق.

3) القفل: لقد عَرَّفَ ابن سناء الملك الأقفال بأنّها "أجزاء مُؤَلَّفة يلزَمُ أن يكون كلُّ قُفلٍ مِنهَا مُتَّفِقًا مَعَ بَقِيتِهَا في وزنِهَا وقوافيها وَعَدَدُ أجزائِهَا."[2]، وهو ما يلي الدّورَ مُبَاشَرَةً.[3] والقفل في الموشّحة هو:

جَذَبَ الزِّقَ إليه واتّكَى وَسَقَاني أربعًا من أربَعِ

ونفس الشيء إلى آخر الموشّحة.

ويضيف المؤرّخ ابن سناء الملك أنّ "أقل مَا يتركَّبُ القُفلُ مِن جُزءٍ فَصَاعِدًا إلى ثَمَانيَةِ أجزاء."[4]

- القفلُ المُرَكّبُ من جزئين[5]

شَمسٌ قَارنَت بَدْرًا رَاحَ وَنَديم.

- المركّبُ مِن ثلاثَةِ أجزاءٍ:[6]

حَلّت يَدُ الأمطارِ أَزرَّةَ النُّوارِ فَيَاخِذْنِي

---

[1]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 103.
[2]- ابن سناء الملك، دار الطّراز، ص: 33.
[3]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص: 377.
[4]- ابن سناء الملك، دار الطّراز، ص: 33.
[5]- المصدر نفسه، ص: 34.
[6]- المصدر نفسه، السابق، ص:34.

من خلال ما سَبق نستنتج أنّ الوشّاح قد عَمِدَ إلى التغيير مُبدعًا ومبتكرًا في طريقة بناء وتركيب الموشّحة.

4) البيت:عَرَّفَ ابن سناء الملك الأبيات بأنَّهَا "أجزاء مُؤلّفة مُفرَدَةٌ أو مُرَكّبَة يلزمُ في كلِّ بيتٍ منهَا أن يَكونَ مُتَّفِقًا مَعَ بَقيَّةِ أبياتِ الموشَّح في وزنِهَا وَعَدَدِ أجزائِهَا لا في قوافيها."[1] والبيتُ يُساوي الدّور والقفلَ الذي يليه.[2]

فمن خلال المفاهيم التي جاءت على لسان هؤلاء الباحثين نستخرجُ البيت من الموشَّحةِ التي اعتمدنا عليهَا في دراستنا وهو كالآتي:

وَنَديمٌ هِمَّت في غُرَّتِـهِ
وَسَقَانِي الراحَ من رَاحتِهِ
فَإذَا مَا صَحَّ مِن سَكرَتِـهِ
جَذَبَ الزِّقَ إليهِ واتّكى وَسَقَانِي أربَعًا من أربَعِ[3]

وكَتَذكير في شُروط الأبيَات، كَمَا عَرَّفَهَا ابن سناء الملك أَنَّهَا تأتي مُفردَةٌ أو مُرَكّبَة.[4]

*أمثلة مَا أجزاؤهُ مُفردَةٌ، مَا هو منهَا على ثلاثةِ أجزاء:[5]

أرَى لَكَ مُهَنَّد أحَاطَ بِهِ إلا تمِد فَجَرَّدَ مَا جَرَّد
فَيَا سَاحِرَ الجُفنِ حُسَامُكَ قِطاع

*أمثلة الأبيات التي أجزاؤها مُرَكَّبَةٌ، مَا تَرَكَّبَ بَيْتُهُ مِن فقرتين وَثلاثَة أجزاء.[6]

أقِمْ عُذرِي فَقَد آنَ أن أعْكِــف

[1]– ابن سناء الملك، دار الطّراز في عمل الموشحات، ص: 33.
[2]– ينظر، سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 103.
[3]– انظر الموشّحة في كتاب جيش التوشيح للسان الدّين بن الخطيب، ص: 202.
[4]– ينظر،ابن سناء الملك، دار الطّراز ، ص: 33.
[5]– المصدر نفسه، ص : 36.
[6]– المصدر نفسه، السابق، ص: 37.

عَلَى خَمْرٍ	يَطُوفُ بِهَا أوطَـف
كَمَا تَدرِي	هَضِيمُ الحشَى مُخطَف
إذا مَا مَادَ في مُخَضِّرَةِ الأبرادِ	رَأيتُ الآسَ بأورَاقِهِ قَدْ مَاسَ[1]

من خلال النّماذج التي رأيناها يمكن القول أنّ الأبيات نوعين مفردة ومركّبة ويجب أن يضاف إليها قفلا لتستوفي شروطهَا.

5) الغصن: جاء مفهومُهُ أنّه "كُلُّ شَطرٍ من أشطُرِ المطلَعِ أو القفل أو الخرجة وتتساوى الأغصانُ عَددًا وَتَرتيبًا وقافيّةً في كُلِّ المُوشّحَة."[2]

6) السَّمط: ويُعَرَّف أيضًا أنّه "كلُّ شَطرٍ من أشطُرِ الدّور، وقد يكون السّمطُ مُكَوَّنًا من فقرةٍ واحدةٍ...، وربَّمَا تألّف من فقرتين."[3]

فيما يلي مُوَشَّحة للأعمى التَّطيلي يقول:[4]

أنَا والجمـالُ	وَهُم وَمَا اختَارُوا
سَلْ بَنَاتَ قَلبِي	هَل تَعَزّى وَتَقَـر
لاَ أقولُ مُسبّي	مَا بُكَائي سِـر
قُد إليكَ حَسبِي	لَيسَ يَـنفَعُ الحَذَر
أينَ الاحتمَـالُ	لا هُــو وَلاَ دَارُ

وبنَاءً عَلَى هذهِ الموشَّحة سَوفَ نُطبّق الأجزاء المذكورة:

غصن	غصن
أنا والجمال	وَهُمْ وَمَا اختَارُوا
– سمط	– سمط

[1]– ابن سناء الملك، دار الطّراز، ص: 37.

[2]– مصطفى الشكعة،الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 377.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]– بن أبي هريرة الأعمى التّطيلي، ديوانه، تحقيق د: إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، لبنان (د. ت) 7 3: 257.

سل بنات قلبي هَل تَعزّى وتَقَر

– سمط – سمط

لا أقول مُسبّي مَا بُكَائي سِر

– سمط – سمط

قد إليك لَيسَ يَنفَعُ الحَذر

نستخلص من خلال هذا النّموذج وجود غُصنين في مطلع الموشّحة كَمَا أنّ الأسماط جاءت في الدّور على شكل فقرتين في كلّ شطر من أشطر الدّور كما رأينا في التعريفات السّابقة.

7) الخرجة: عند ابن سناء الملك "عبارة عن القفل الأخير من الموشّح."[1]

وتتمثّل الخرجة التي وردت في موشّحة الأعمى التَّطيلي كالآتي:

استهَلَّ مَالْ طَالَ عَلَيَّ قِمَارُ[2]

ويُبيّن ابن سناء الملك أهميّة الخرجة قائلا: "والخَرَجَةُ هي أبزارُ المُوَشّح وَمِلحُهُ وسُكّرُهُ ومِسكُهُ وَعَنبَرُهُ، وهي العَاقِبَةُ وينبغي أن تكون حميدة والخاتمة بل السَّابقة وإن كانت الأخيرة."[3]

ومن أنواع الخرجات: (مُعربَة).[4]أي فصيحة اللّفظ.[5]

كقول ابن بقي:[6]

إنَّمَا يحيي سَليلُ الكِرامِ وَاحدُ الدُّنيا وَمعنَى الأنَام

وفي منتهى الكلام حتى لا نطيل الحديث عن الموشّحات كانت هذه الأخيرة "أكبر حَرَكَةٍ من حركاتِ التّجديد في تاريخ الشعر العربي، كما كانت ثورة عاتيّة على التّقاليد الموروثةِ في بناء القصيدة العَرَبيّة."[7]

---

[1]– ابن سناء الملك، دار الطّراز، ص: 40.

[2]– الأعمى التّطيلي، ديوانه، ص: 258.

[3]– ابن سناء الملك، دار الطّراز، ص: 43.

[4]– المصدر نفسه، ص:41.

[5]– سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 103.

[6]– ابن سناء الملك، دار الطّراز، ص:41.

[7]– فوزي سعد عيسى، الموشحات والأزجال الأندلسيّة في عصر الموحّدين، ص: 103.

المبحث الثالث: الأزجال الأندلسيّة

يعتبر الزّجل من الفنون الشعريّة المستحدثة في الأندلس لَهُ قواعد وأسس يلتزم بها في طريقة تركيبه لذلك جاءَ وليدًا للموشّحات وفنًّا لاحقًا بِهَا.

1) مفهوم الزّجل:

أ– لغة: جاء في القاموس المحيط تعريف الزّجل أنّه"مُحَرَّكَةً اللّعِبُ، والجلبَة والتّطريبُ وَرَفعُ الصّوتِ، زَجِلَ كفرحَ، فهو زَجِلٌ وزَاجِلٌ، وَنَبتُ زَجِلٌ صَوَّتَ فيهِ الرِّيحُ."[1]

أمّا في لسان العرب لابن منظور فإنَّ "الزّجَلَ بالتَّحريك: اللّعِبُ والجلبَةُ وَرَفعُ الصَّوتِ، وَخَصَّ بِهِ التَّطريبُ، وَأنشَدَ سِبَويه:

لَهُ زَجلٌ كأنَّهُ صَوتٌ حَادٌ

إذَا طَلَبَ الوَسيقة، أو زمير

"وربّمَا أوقِعَ الزّاجلُ على الغنَاءِ؛ قال:

وهو يُغنّيهَا غِنَاءً زاجِلاً

والزّجلُ: رَفعُ الصَّوتِ الطَّربْ؛ وقال:

يَا ليتَنا كُنَّا حَمَامي زاجلٍ."[2]

من خلال التعريفات التي جاء بها علماء اللّغة يبدو لنا أنَّ الزّجل في معناه اللّغوي يتمثل في الألحان الموسيقية والغناء.

ب– اصطلاحا: يقول أحد الباحثين: "وإنّما سمّي هذا الفن زجلاً، لأنّهُ لاَ يلتذُّ بِهِ، وتفهم مقاطع أوزانِهِ، ولزوم قوافيه حتّى يُغَنَّى بهِ وَيُصوَّتُ، فيزول اللّبسُ بذلك."[3]

---

[1]– الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، ص: 697.

[2]– ابن منظور، لسان العرب، المجلّد: 11 7 6: 302.

[3]– صفي الدّين الحلي، العاطل الحالي والمرخّص الغالي، تحقيق د: حسين نصّار، الطّبعة الثانية، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، 2003 2 2 3: 06.

ويذكر عبد العزيز محمد عيسى في كتابه الأدب العربي في الأندلس أنّ السبَبَ في تسميّة الزّجل ما رَوَى: أنّ ابن قزمان*القرطبي، وهو صغير بالمكتب دَخَلَ عليه صبيٌّ مثله فأجلسَهُ إلى جانبه وَتَشَاغَلَ بالحديث مَعَهُ عن أداءِ واجبه، فلمَّا رآهُ أستاذ المكتب على هذه الحال نَهَرَهُ فَأَخَذَ لَوْحَهُ وكَتَبَ في أعلاه؛

الملاح أولاد أمَّـاره	والوْحَاشِ ولاَد نصَارَه
وابن قزمان جَا يغفر	مَا قبلَ لَهُ الشّيخ غفَارَه

فلمَّا اطّلَعَ الشيخُ عَلَى اللّوح عَجبَ وَقَالَ لَهُ "هَجَوْتَنَا بكلامٍ مَزجولٍ"[1]، بمعنى أنّه ألقى عليه شعرًا من الزّجل.

ويرى الباحث محمد عبّاسة أنّ الزّجل من حيث الاصطلاح "ضَربٌ من ضُروب النَّظمِ يختلفُ عَن القَصيدة من حيث الإعراب والقَافيَّة كما يختلف عن الموشَّح من حيث الإعراب ولا يختَلف عنه من جانب القافيَّة إلاّ نَادِراً."[2]

من خلال هذا التعريف نرى أنّ الزّجل قد يشبه الموشّح في بعض الجوانب الفنيَّة حيث "يعدُّ الزّجل بهذهِ الصّورة مُوَشَّحًا ملحونًا إلاّ أنّهُ لَيسَ من الشّعرِ الملحون، وقد كُتِبَ بِلُغَةٍ ليست عاميّة بَحْتَةٍ بل هي مُهَذَّبَةٌ وإن كانت غير مُعَرَّبَةٍ."[3]

ونجد آنخلبالانتيا يقول: "أمَّا الزّجَل فَشِعرٌ يُصَاغُ في فَقَراتٍ تُسَمَّى أبياتًا. وتبدأُ مَقطوعَتَهُ ببيتٍ يُعَرَفُ "بالمركز" أو "السَّمَط" تليهِ أغصانٌ ذَات قَافيَة واحدة ووزنٍ واحد، يتكوّن الغُصنُ منهَا من ثلاثةِ مَصَاريعٍ أو أكثر، ثم يعقُبُهَا بيتٌ في نفسِ وزنِ المركزِ وقافيتهِ وهكذا."[4]

---

[1]- عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص: 173- 174.

*عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن قزمان، فقيه، محدث، يروي عن محمد بن فرج، مولى الطّلاع، وعن العبسي وغيرهما، توفي سنة أربع وستين وخمس مائة، انظر الظبي، بغية الملتمس، ص: 466 وانظر الحميدي جذوة المقتبس، ص: 291

[2]- محمد عبّاسة، الموشحات والأزجال الأندلسيّة، ص: 105- 106.

[3]- المرجع نفسه، ص: 106.

[4]- آنخلجانثالثبالانتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2001 6 1: 174.

ويُشيرُ إليه ابن خلدون في مقدّمته قائلاً: "ولمَّا شاعَ فنّ التوشيح في أهل الأندلس وَأخَذَ به الجمهور لسلاستهِ وتنميق كَلاَمِهِ وترصيع أجزائهِ، نسجَتِ العامّة من أهلِ الأمصارِعلى مِنوالِهِ، ونَظَمُوا في طريقتهِ بلغتِهِم الحَضَريَّةُ من غير أن يلتزموافيها إعرَابًا واستحدثوهُ فَنًّا سَمُّوهُ الزّجل."[1]

ولم يذهب المفكّر كراتشوفسكي بعيدًا عن كلام ابن خلدون إذ يقول: "أمَّا الشكل الآخر فهو الزّجل، وقد كان أكثر ثباتًا ولم يدخل في دائرة الأدب وهو من حيث تركيبه لا يختلف عن الموشّح اختلافًا ولو مبدئيًّا."[2]

كما أنّ "الزّجل وليدُ الموشّحات وَفرعُهَا النّابت مِن دَوحَتِهَا وهو شعر العامّة اهتدوا إليه حين كانَ لابدَّ من التزام الإعراب في غالب أحوال الموشَّحات ولم يتَيَسَّر للعَامَّةِ السَّيرَ في هذهِ الطّريق."[3]

إضافة إلى الرَّأي الذي جاء به أديبٌ آخر مفادُه أنّ "الزّجلَ يُطلَقُ على السُّوقي الدّارج منهُما، إذ لابَّد أن يكون في اللّغة الدَّارجة، ممّا يُتغنَّى به في الطّرقاتِ."[4]

وذلك لأنّ الزّجل نابعٌ من خرجات المَوَشَّح سواءٌ كانت عَجَميّة أو عاميّة باعتبار أنّ "الحديث عن الزّجل في إثرِ الحديث عنِ التّوشيح يَبدو أمرًا مَنطقيًّا وطَبيعيًّا ذلك أنَّ الموشّحات حين احتضنت بعض العِبارات العاميّة أو الأعجميّة في خَرجَتِهَا وأحيانًا في كيانِهَا وبنَائِهَا إمَّا كانت تُشَكّلُ الحلقة الوُسطَى بين الشِّعر الفصيح والشعر العامّي الذي اصطَلَحَ على تسميّتِهِ بالزّجَلِ."[5]

ويَرَى أحد الأدباء المحدثين أنّه "من فنون الشعر المستحدثة في الأندلس، التي ظهَرَت بعد الموشّحات في وقت متأخّرٍ."[6]

ويضيف على ذلك أنّ "الزّجل شعر منظومٌ بالعَاميّة يتلاءمُ مَعَ رَغَبَات العامّة ومن لا يجُدونَ العربيّة من أبناء البلاد وملوك البربَر."[7]

---

[1]– عبد الرحمن بن خلدون، مقدمته، المجلّد الثاني، ص: 433.

[2]– أغناطيوس كراتشوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات، (الشعر العربي في الأندلس) ص: 139.

[3]– عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص: 173.

[4]– الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 31987 1: 189.

[5]– مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص: 447.

[6]– سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 125.

[7]– المرجع نفسه، السابق ص:125.

من خلال كلّ ما سبق نستخلص أنَّ الزَّجلِ جاء تقليدًا للموشّحات من حيث البناء الفنّي إلاّ أنّه يطلق على اللّفظ السوقي والعامّي.

2) مخترع الزَّجل:

وردَ في مقدّمة ابن خلدون أنّ "أوّلَ من أبدَعَ في هذهِ الطريقَة الزّجليَّة أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبلُهُ في الأندلس،لكن لم يظهر حلاها ولا انكَسَبَت مَعانيها، واشتهَرت رَشاقتُها إلاّ في زمانِه."[1]

فابن خلدون ومن خلال كَلامِهِ هذا يُرجِعُ أوّل ابتكار لهذا الفن للزجّال ابن قزمان، وأنّهُ تَطوَّر في وقته آنذاك.

كما اختلف القُدامى فيمن نَظَمَ الزّجَل لأوَّل مرّة في الأندلس لعَدَم وجود النّصوص الأولى بين أيديهم فَصَبُّوا جلَّ اهتمَامِهِم على ابن قزمان.[2]

وممّا ورَد في كتاب المغرب في حلا المغرب عن ابن قزمان أنّه "إمامُ الزّجالين بالأندلس، وسَيَردُ من عَجَائِبِه في الأهداب، ما يشهدُ لَهُ بالتقدّم في هذا الباب."[3]

ويقول صفي الدّين الحلي: "واختلفوا فيمن اخترعَ الزَّجَل، فقيل: إنّ مختَرَعَهُ ابن غُرَّلَةُ.... استخرجَهُ من الموشّح. وقيل: بل يَخلُف بن رَاشد، وكان هو إمام الزّجل قبلَ أبي بكر ابن قزمان."[4]

ويضيف صفي الدّين الحلي: "وقيل: بل مخترعَهُ مُدغَلّيس"[5] ويرى الحلي أنَّ مُدْغَلّيس ليس مُخترِعَهُ، لأنّهُ وَجَدَ في ديوانِه زَجَلاً مَدِيحًا، يذكُرُ في آخرِهِ أنَّهُ نَظَمَهُ مُعَارِضًا لابن قزمان مِمَّا يَدُلُّ على أنَّهُ مُعَاصِرَهُ أو متأخّرٌ عنه. وَمطلَعُ زَجَلِه:

لَقَد لِقَلبي حِرصٌ وإلحَاح   في عِشْقِ المِلاح.[6]

---

[1]- عبد الرحمان بن خلدون، المقدّمة، المجلّد الثاني، ص: 433.

[2]- ينظر، محمد عبّاسة، الموشّحات والأزجال الأندلسيّة، ص: 114.

[3]- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلا المغرب، تحقيق، د: شوقي ضيف، الجزء الأوّل، الطّبعة الرّابعة، دار المعارف، ص: 100.

[4]- صفي الدّين الحلي، العاطل الحالي والمرخّص الغالي، ص: 13.

[5]- المصدر نفسه، ص: 13.

[6]- ينظر، المصدر نفسه، السابق ،ص: 13.

ويذهب الباحث فوزي سعد عيسى إلى أنّ "هَذه الآرَاء تَعوُزهَا الدِّقَةُ لأنّنَا نَعلَمُ أنَّ مُدغَلّيس وابن غُزَّلَة عَاشَا في زَمَنٍ مُتأخّرٍ عن ابن قزمان، والواقع أنَّهُ من الصَّعب تحديدُ مُختَرِعِ الزّجلِ غَيرَ أنّهُ من الثّابتِ أنَّ هُنَاكَ زجالينَ آخرينَ سَبَقوا ابن قزمان."[1]

ويرجِعُ الاختلافُ فيمن اخترعَ الزَّجَل إلى عَدَمِ اهتمام مؤرّخي الأدب بالزَّجَل عندَ ظُهُورِهِ لأوّلِ مَرَّةٍ في الأندلس.[2]

ومن أخبار مُدغَلّيس مَا جَاءَ في النَّفح للمقري أنّه كان "مشهوراً بالانطباعِ والصَّنعَةِ في الأزجَالِ خليفة ابن قزمان في زمانِهِ، وكان أهلُ الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزَّجالين بمنزلة المُتَنَبّي في الشعراء، و مُدغَلّيس بمنزلة أبي تمَّام، بالنَّظَرِ إلى الانطباع والصّنَاعَةِ، فابن قزمان مُلتَفِتٌ إلى المعنَى: و مُدغَلّيس مُلتَفِتٌ لِلَّفظِ."[3]

ومن شعرِهِ قوله:[4]

مَا ضَرَّكُم لَو كَتَبتُم حَرْفًا وَلَو باليسَـارِ
إذ أنتُم نُورُ عَينِي وَمَطلَبِي واختِيَاري

من خلال الآراء المختلفة بين الدّارسين نرى أنّهُ لم يثبت بعدُ أي مصدر أندلسي عن حقيقة مبتكر هذا الفنّ من الزّجل فهناك من يرجِعُهَا إلى ابن قزمان وهناك من يَعُدَّ أنَّ مُدغَلّيس هو صَاحبها الأصلي.

[1] - فوزي سعد عيسى، الموشحات والأزجال الأندلسيّة في عصر الموحّدين، ص: 140.
[2] - ينظر، محمد عبّاسة، الموشحات والأزجال الأندلسيّة وأثرها في شعر التروبادور، ص: 114.
[3] - المقرّي، نفح الطّيب، 385/3.
[4] - المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

3) ظهور الزّجل ونشأته:

يُعَدُّ الزّجل من الفنون الشعريّة المستحدثة بعد الموشّح فقد تباينَت آراء المؤرخين القدامى حول نشأة هذا الفنِّ، ولو أنّهم يَتَّفِقُون عَلَى أنَّ الزّجل وليدُ البيئة الأندلسيّة ومنها خرَجَ إلى الأراضي المغربيّة والمشرقيّة وانتَشَرَ فيهَا.[1]

ويسير فوزي سعد عيسى نفس المسار أنّ "الزّجل فنٌّ أندلسي النّشأةِ، نمَا وترعرَعَ في الأندلس ثم انتقلَ بعد ذلِكَ إلى المشرق شأنه في ذلك شأن الموشّحات."[2]

ويذهب إحسان عبّاس إلى أن تكون الحاجة الشعبيّة للغناء هي السّبب المباشرُ في نشأةٍ الزّجل، بالإضافة إلى التأثّر بالأغنيّات الشعبيّة الأعجميّة الشَّائعة يومئذٍ في الأندلس.[3]

و يرى إحسان عباس أيضا أنّ "الزّجل في بدَايتهِ أغنيّة شعبيّة لم تَبدأ إلاّ حينَ تم ازدواج اللّغة العربيّة في الأندلس لانقسامها بين لَهجَةٍ دَارجَةٍ وأخرى مكتوبة."[4]

ويقول محمد عبّاسة: "ولَعَلَّ ممَّا سَاعَدَ على نشأةِ الزّجل في الأندلس ما كان من شيوع الموشّحات بينَ النّاس، وإنَّ العوَامِلَ الأرستقراطية من مجالس أنسٍ وَغنَاءٍ التي أدّت إلى ظهور الموشّح لا تسمح للزّجل أن يظهرَ أوّلاً دون الاحتكاك بالعارفين من الشعراء الذين هندسُوا للموشّحِ أشكالاً لا يقوى عليهَا إلاّ من كان من الخاصّة."[5]

فمن الملاحظ أنّ السّبب الرّئيسي في ظهور الزّجل يعود إلى انتشار الموشّح بين عامّة الشعب، واختلاطهم بشعراء مُبدعين.

ويقول أيضًا المؤرّخ عبد العزيز الأهواني: "وقَدَّرنَا أنّ الزّجلَ ظَهَر في الوقتِ الذي أخَذَ فيه التّوشيح يتّجِهُ إلى التّعقيدِ ويبتعدُ عن البَساطَةِ الأولى، ومعنى هذَا أنَّ الزّجل يرجعُ إلى أواخِرِ القرن الرّابع

[1]- ينظر، محمد عبّاسة، الموشّحات الأندلسيّة، ص: 106.

[2]- فوزي سعدعيسى، الموشّحات والأزجال الأندلسيّة في عصر الموحّدين، ص: 139.

[3]- ينظر، إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، ص: 205.

[4]- المرجع نفسه، ص: 206.

[5]- محمد عبّاسة، الموشحات والأزجال الأندلسيّة وأثرها في شعر التروبادور، ص: 108.

الهجري حيث عاشَ عُبادَة بن ماء السَّماء ويوسف ابن هارون الرَّمادي؛ وهُمَا اللّذانِ أدخلاَ التَّغييرَ على التَّوشيح حَسْبَ نصٍّ ابن بسّام."[1]

يظهر لنا أنّ البذور الأولى للزّجل بدأت بعدَ مَا قلّت اهتمامات النّاس بالموشّح بسبب ميولهِ إلى الالتباس والغموض ومن نماذج الزّجل التي وجدت في المصادر المهتمّة بهذا الفنِّ، ولَعلَّ أشهَرَهَا للإمام ابن قزمان:[2]

وعريش قد قَامَ عَلَى دُكّان بحَال رِواق

وَأسَد قَد ابتَلَعَ ثُعْبَان في غَلظ سَاق

وَفَتَحَ فَمَهُ بحال إنسان فيه الفوَاق

فهذه القطعة الزّجليّة جاءت بلغة دارجة، لكن ابن قزمان كان حكيما في طريقة نظمها.

ويقول أبو الحسن المقرّي الدَّاني:[3]

نهَار مليح تَعجَبني أوصَافوا شراب وَمْلاَح مِن حَوْلي طَافُوا

والمعلّمين يقولوا بصَفصَافُوا والنُورى أحرى بمُقلاَتُو

فبخلاف الزّجالين المذكورين سابقًا، والذي كان على رأسهم أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الأصغر، كانَ هناك زجّالون آخرون ولعَلَّ أشهرُهم ابن غُزَّلة، وابن جحدر الاشبيلي، وأبو زيد الحدّاد البَكّازورالبَلَنسِي، وأبو عبد الله محمد بن حَسُّون الحَلاَ.[4]

أمَّا زجّالي القرن الخامس فنجد أخطل بن نمَّارَة، وابن راشد، وقد عاب ابن قزمان زجل ابن راشد لما فيه من الخشونة والصُعوبة.[5]

والزّجل مطلَعُهُ:[6]

---

[1]- عبد العزيز الأهواني، الزّجل في الأندلس، ص: 52، نقلا عن محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 201.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، ص: 433- 434.

[3]- المصدرنفسه : 434.

[4]- ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 449.

[5]- ينظر، محمد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسي، ص: 202.

[6]- صفي الدين الحلي، العاطل الحالي والمرخّص الغالي، ص: 13.

زَجَلُكَ يا ابن راشد قويٌّ مَتين وإن كان هو للقُوّةِ فَالحَمَّلين

يريدُ: إن كانَ النَّظمُ بالقُوَّةِ فالحَمَّالون أولى بهِ مِن أهلِ الأدب.[1]

ويقول علي بن نمّارة في مطلع زَجَلهِ الذي سَارَت بهِ الرّكبان:[2]

كُن كَمَا شِيت مهَاوَد أوتيَّاه أو بعَيد أو قريب

من يحبَّك ويقدَر أن يعصيك لَيْسَ يُسمّى حَبِيب

وقال أبو الحسن علي بن جحدر الزَّجال:[3]

كيفَ أصبحتَ أيُّهَذَا الحَبيبُ نَحنُ مَرضَى الهَوى وَأنتَ الطّبيبُ

كُلُّ قَلب إليك يَهفُو غَرَامـاً وَيحـَهَا يَا عَلـيُّ منكَ القُلُـوبُ

إن تَلُح هَوَّمَت عَلَيكَ هُيَاماً أو تَغب حَنَّهَا عَلَيـكَ الوَجيـبُ

فهذهِ الطّريقة الزّجلية من الشّعر هي فنُّ العَامَّة بالأندلس، وفيها نَظمُهم، لكن بِلُغَتِهِم العَامّية، ويُسمُّونَهُ الشِّعرَ الزّجلي، مثل قول شاعرهم:[4]

دَهَر لي نَعشَق جفـُونَك وسنيـــــن وَأنتَ لاَ شَفَقَةً ولاَ قَـلب يَلـين

حتّى ترى قلبي من أجلك كيفَ رَجَع صَنعَةَ السِّكَّةِ مَا بينَ الحَدَّادِيـن

الدُّمُوع تَرشَرَش والنَّار تَلتَـهِـــــب وَالمَطَارق من شمال ومن يمين

خَـلَق اللهُ النَّصَـارى للـــــــغَزو وَأنتَ تَغزُو في قُلُوبِ العَاشقِين

ويُلَخِّصُ الباحث الطّاهر أحمد مَكّي في كتابه دراسات أندلسيّة أنَّ "الطّابع الشَّعبي لهذه الأزجال...، رَغمَ قالِبهَا المبتكَر يَدُلُّ على أنَّهَا نُظِّمَت لِيُتَغَنَّى بِهَا الشعراءُ الجوّالون في الأسواق والمتسوّلونَ في الشوارِع."[5]

1- صفي الدّين الحلي ،المصدر السّابق . .: 13.

2- أبو بكر بن حجّة الحموي، بلوغ الأمل في فنِّ الزّجل، تحقيق د: رضا محسن القريشي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1974: ص: 77.

3- المقرّي، نفح الطّيب، 61/4.

4- ينظر، ابن خلدون، المقدّمة، المجلّد الثاني، ص: 437.

5- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص: 190.

من هنا نستنتج أنّ الزّجل نشأ من طَرف عامّة النّاس فضلا عن ذلك فقد "تطوَر الزّجل في الأندلس وَمَرَّ في خَمسَةِ أدوارٍ مُتَمَيّزَةٍ هي: دورُ الأغنيّة الشعبيّة، فدَورُ الزّجالين قبلَ ابن قزمان، فدَورُ زجّالي القرن السّادس وفي مُقدِّمتهِم ابن قزمان، فدَورُ زجّالي القرن السّابع وفي مُقدِّمتهِم مُدغَلّيس، فدورُ زجّالي القرن الثامن وفي مُقدِّمتهِم لسان الدّين بن الخطيب، ولا شكَّ أنَّ الزَّجَلَ وُلِدَ في أحضانِ الأُغنيَّة الشعبيّة وأنّ الصِّلَة بينَهُما ظَلّت تتراوحُ مَا بينَ مدٍّ وَجَزرٍ."[1]

يَتَّضحُ لَنَا من خلال مَا رأينَاهُ سَالِفًا أنَّ الزّجل مَرَّ عَلَى عدّةِ مَرَاحِلَ في فترةِ نشأتهِ، ولَعَلَّ العامل الأساسي لنموّهِ هو الأغنية وذيُوعِهَا في الأندلس كما رأينا في أقوال الباحثين والأدباء.

ومن هنا "كانَ الزّجل فَنًّا أندلسيًّا، وَقد ذَاعَ في أنحاءِ الأندلس، عَبَّرَ بهِ الزَّجَالون عن واقع الشّعب، أفراحِهِ وأحزانهِ، وَعَمَدَ إليهِ المُغَنُّونَ، وَبثُّوا فيه إيقاعاتهم الموسيقيّة. ممَّا أكسَبَهُ صِفَةَ الشَّعبيّة."[2]

ونتيجة لذلك "نحن إذن إزاء واقع تاريخي لاَشَكَّ فيهِ، وهو وجود طريقة شعريّة غنائيّة شعبيّة منذ القرن التّاسع الميلادي ،انتشرت في العالم الإسلامي منذ العصور الوسطى حتّى يَومِنَا هذَا."[3]

فكان الزّجل تلبيّة لحاجَةٍ شعبيّة وإرضَاءً لرغَباتهم وُميولاَتهم على أرض الأندلُس.

4) بناء الزّجل:

يرى أحد الباحثين أنّ الزّجل "يُشبهُ الموشّح في بنائِهِ وأغراضِهِ، غير أنّه يغرقُ في العاميّة، ويُعرَى من الإعراب، وهو فنٌّ اخترُعَ ليُتغنَّى بهِ بينَ الأوساط الشعبيّة."[4]

إضافة إلى ذلك "لما كان الزّجل وليدُ الموشّح، فمن الطّبيعي أن يتأثَّرَ بهِ في شكلهِ وبنَائهِ، وأن يحملَ كثيراً من طرائقهِ وأصُولِهِ وأن يخضَعَ لكثيرٍ من قواعدهِ وأسُسهِ."[5]

[1]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 127.

[2]- المرجع نفسه ، ص: 135.

[3]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص: 192.

[4]- العربي سالم الشريف، دراسات في الأدب الأندلسي، دار شموع الثقافة، الطبعة الأولى، 22003 1: 38.

[5]- فوزي سعد عيسى، الموشّحات والأزجال الأندلسيّة في عصر الموحّدين، ص: 177.

أمَّا مصطفى الشَّكعَة فيرى أنّ الزّجل "من حيثُ بناؤهُ يخضَعُ لبعض القيودِ التي تخضَعُ لهَا الموشّحة، ولكن قيودهُ أخَفُّ قليلا من تلك التي تَخضَعُ لَهَا المُوشَّحةُ."[1]

ومن جانب آخر تحدّث الطّاهر أحمد مكّي عن سهولة هذا اللّون إذ قال أنّ: "الزّجل أشدُّ بساطة وهو يتكوّن من أدوارٍ، وكلُّ دَورٍ يتكوّن من مطلعٍ، أو مَركزٍ ومن ثلاثة أبياتٍ أو أكثر. مُتّفِقة القافيَّة فيمَا بينَهَا، تُسَمَّى الأغصان، وبيتٌ آخر أو أكثر، وهو القفل وقافيته ووزنُهُ من نفس قافية ووزن المطلعِ."[2]

وبناءً على هذا القول مثال زجل لابن قزمان يمدح به أبا الحسن بن هانئ ومطلعُهُ:[3]

نَظْرَه مِن مَحَاسِنه تَكْفانِي والهوى فَتَن

والذّي قَتَلني وأيلاني منظَرًا حَسَــن

ولَهُ من ذلك في أغصان بيتٍ من زجل:[4]

قَلبي أخَذ مِنِّي صَبي وَبَيْتُو صَار حَجِّي وعُمرَتِي.

ومن أبرز الأزجال وأسهلِها نجد زجل الحاج علي بن مقاتل يقول:[5]

يا مليح الشّبَـاب يَا حُـلوَ الشَّمَايـل

إنَّ عَينيك تعمل في قلبي عَمَايَــل

فيهَا فَترَةً تخطَر لمن بِهَا يَـجهَلْ

إنَّهَا سَهلةٌ وَالمُنُون منِهَا أسـهَل

وَرَبَاب الفَضل والتَّشَابيه يَا شَهْل

قالُوا عينيك نرجس وَصَدْغَيك خْمَايَل

صَبَّتهَا أسيَافٌمُعَقرَباتَالحمَـايَل

---

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 462.

[2]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص: 189.

[3]- صفي الدين الحلي، العاطل الحالي والمرخّص الغالي، ص: 81.

[4]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5]- ابن حجّة الحموي، بلوغ الأمل في فنِّ الزّجل، ص: 115- 116.

مَن ذَا يحمِل حُور العوينَات بتَاعَـك
وأنتَ سُلطَان عَلَى المَعَاشِيق وَمَاعَك
رُمحُ قَامَة بلينـْهَا اشْتَـد بَاعَـك
وَحَوَاجب قِيسي عَلَى جُفَـن نَابـِل
سَهمُهَا أنْفَذ في القَلْبِ مِن سِحرِ بَابِلِ
قَلّي إنسان هذا الذي تَثْني عَنُّو
وتقُول في مديحك أنُّو وَأَنّـُـــــــو
مَا رَأيتُ في المِلاح أحْلاَ مِنُّــــو
قُلتُ لَوْلاَ فَتَّسْ وقَايَس وَقَابل
وعلى هينْتَك هذا العَام وَقَابَل

فهذا الزّجل يتكوّن من أربعة مطالع وثلاث أبيات متفقة الوزن والقافية وكلّ بيت يحمل عدّة أغصان بقافية موحّدة كما تعتبر"قصيدة الزّجل الصورة الأولى لهذا الفنّ، وهي تتفِقُ في بنائِهَا الفنّي مَعَ القصيدة التّقليديّة سواءٌ في الوزن أو القافية أو التّصريع ولا تختلف عنها في شيء غير اللّحن والإعراب واللّغة."[1]

ويذكر صفي الدّين الحلي في كتابه العاطل الحالي أنّ "أوّلَ مَا نَظمُوا الأزجال جعَلوهَا قَصَائدَ مُقَصّدَة وأبياتًا مُجَرَّدَة في أبحُرِ عَروضِ العَرَب، بقافية واحدة كالقريض، لا يُغَايِرُهُ بِغيرِ اللّحنِ واللّفظ العامّي، وَسَمّوهَا القَصَائد الزّجليّة."[2]

فمن أمثلة ذلك قولُ مُدغَلّيس:[3]

لاَ مليح إلاّ الذي نَعشَقَ أنَـا	وَلاَ قَايَد إلاّ ذَا المَولى الأجَـلّ
أن عبد الله الذي أسّس لَوْجَاه	بن صَنَاديـد تَبَنَّى واحتَفَل

[1]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص: 128.
[2]- صفي الدّين الحلي، العاطل الحالي والمرخّص الغالي، ص: 14.
[3]- المصدر نفسه، ص: 16.

وَلُوْ هِمَّةٌ قد عَلَت فَوقَ الهِمَم فَهوَ لا يَرضَى الثُريَّاعَنْ نَعَل

ولابدَّ من التّذكير أنّ "كلّ مَا أعرِبَ يُسَمَّى مُوَشَّحًا، وكلُّ مَا خلاَ مِن الإعراب زجَلاً، وما اشترِكَ فيه الإعراب واللّحن يُسَمَّى مُزَنَّمًا."[1]

ويرى ابن حجّة الحموي أنّ "من الأزجال التي زَنَّمَ فيها ابن قزمان، وأعرب في بعض ألفاظِهَا وهو النّاهي عن ذلك قوله في بيت زجلٍ مطلعُهُ:

شَرَبَ الخَمرَ المُحتَسَب وَزَنَا قَاضِي المسلمين آتِ هو السَّبَب

سيدي ليشْ جَعَلَتَ ذا مُحتَسَبْ

ومُحَكَّم في أمرِ أهـلِ الأدَب

وهو زاني زَنيم كثيرُ الـزَّنا."[2]

ومن هنا يقول أحد الأدباء :"وليس أثر الأزجال في الأدب بأقلّ شأنا من أثر الموشّحات فإنَّ الأزجال شعر العامّة وأدب أولئكَ الكثيرين الذين لم يأخذوا من التّعليم والعلوم نَصيبًا تَتَجلَّى بوَسَاطَتِهِ خَطَرَاتُ نُفُوسِهِم وَمَا تنطَوي عليه حَنَايَ صدورهم."[3]

وفي هذا الصَّدد نستطيع أن نقول أنّ "الزّجل أدب موضعي مؤقت يروج بين ناظميه ومُتكلِّمي لغتهم وفي بيئتهم، ويظلُّ باقيًا ومؤدّيًا كلّ أغراضهِ ما بقي هؤلاء، ثم لا يَلبَثُ- حين تَتَغَيَّرُ لُغة التَّخاطبِ وتتّخذُ ألفاظًا غَيرَ ألفاظِهَا وبيئة غيرَ البيئة التي نشأت فِيهَا- أن يضمحلّ أو يَتَلاشى."[4]

وفي ختام هذا البحث نستخلص أنّ الزّجل ما هو إلاّ ابتكار عرفَهُ الأدب العربي في الأندلس، من أجل النّهوض بالشعر الأندلسي إلى التّجديد وتحطيم القيود التّقليديّة.

---

[1]- صفي الدّين الحلي ،العاطل الحالي والمرخّص الغالي : 08.

[2]- ابن حجّة الحموي، بلوغ الأمل في فنّ الزّجل، ص: 58.

[3]- عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص: 179.

[4]- عبد العزيز محمد عيسى ،مرجع سابق، ص: 180.

الفصل الثاني :
رثاء المدن و الممالك

1.البذور الأولى للرّثاء عند أهل المشرق

2.رثاء المُدن الأندلسية

3.رثاء الممالك الأندلسية

تمهيـــــــد: مفهوم الرّثاء (لغة– اصطلاحا)

1– لغـــة:

جاء في معجم أساس البلاغة للزّمخشري تعريف الرّثاء كما يلي "رَثَيْتُ الميِّتَ بالشِّعْرِ، وَقُلْتُ فيه مَرْثِيّةً وَمَرَاثِي والنَّائِحَة تَتَرَثَّى الميِّت: تترحَّمُ عَلَيْه وَتَنْدُبُهُ...، وَرَثَيْتُ لِفُلاَنٍ: رَقَقْتُ لَهُ مَرْثَاةً". [1]

ويقول ابن منظور في لسان العرب "وَرَثَى فُلاَنٌ فُلاَنًا يَرْثِيه رِثيًّا وَمَرْثِيَةً إذَا بَكَاهُ بَعْدَ مَوْته". [2]

كما وَرَدَ في الصّحاح "وَرَثَيْتُ الميِّتَ مَرْثِيَةً وَرَثَوْتُه أَيْضًا، إذَا بَكَيْتَهُ وَعَدَّدتَ مَحَاسِنَهُ، وَكَذَلِكَ إذَا نَظَمْتَ فِيهِ شِعْرًا. وَرَثَى لَهُ أَي رَقَّ لَهُ."[3]

وَيضيف ابن منظور نفس المعنى على ذلك قائلا "وَرَثَيْتُ المَيِّتَ رَثْيًا وَرِثَاءً وَمَرْثَاةً وَمَرْثِيَةً وَرَثَيْتُهُ: مَدَحْتُهُ بَعْدَ الموْتِ وَبَكَيْتُهُ". [4]

من خلال ما سبق نرى أنّ علماء اللّغة لم يختلفوا في المعنى اللّغوي للرّثاء إذ أنّ هذا الأخير نوع من البكاء والحَسْرَةِ عَلَى المفقود.

2– اصطلاحا:

جاء في اصطلاح النّقّاد والباحثين الأدباء أنّ "الرّثاء فنٌّ من فنون الشّعر الغنائي يعبّرُ فيه الشاعر عن حزنه وتَفَجُّعِه لفقدان حبيب. وهو يتلوّنُ بألوانٍ مُختلفة تبعا للطّبيعة والمزاج والمواقِف، فإذا غَلَبَ عليه البكاء على الرّاحل، وبث اللّوعَةَ والحُزنَ، كان نَدْبًا، وإذا غَلَبَ عليه تسجيل الخصالالحميدة التي تَمَتَّعَ بها الفقيد في حياته، كان تأبينًا. وإذا غَلَبَ عليه التأَمَلُ في حقيقة الموت والحياة كانَ عَزَاءً". [5]

---

[1] – الزَّمَخْشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ج1 1: 81998 9 337.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، الجزء الرابع عشر، ص 309.

[3] – إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تاج اللّغة وصِحّاح العربيّة، تحقيق أحمد عبد الغفور عَطّار، دار العلم للملايين، بيروت، الجزء السادس ط2 1979 ص 2352.

[4] – ابن منظور، لسان العرب، ص 309/14.

[5] – إيميل ناصيف، أروع ما قيل في الرّثاء، دار الجيل بيروت، الطبعة 22 3 05.

والرّثاء يقترب في معناه بالفناء والهلاك وعليه فإنّ "الرّثاء يقترن بالموت، وليس في العالم أمّة لم تعرف الرّثاء، كما أنّهُ ليس فيه أمّة لم تعرف الموت، فالرّثاء وُجِدَ عند كلّ الأُمَمِ والشُعوب بادية وراقيةً مُتَحَضِّرَةً".[1]

فضلا عن ذلك يعتبر الرّثاء" فنٌّ قديمٌ في الشِّعرِ العربي، إلاَّ أنّه يتجدّد مَعَ كلِّ مُصيبَةٍ تُصيبُ الشَّاعِرَ، فيُعبّرُ عنها بما جَادَت قَرِيحَتُهُ".[2]

كما يعتبر "من أشهر موضوعات الشعرِ نَظْمًا وَأَصْدقِ مَا يكون الشاعِرُ فيه".[3]

ويُعَبّر غارسيا غومس في كتابه الشعر الأندلسي قائلاً: "الرّثاء وهو ذكر مناقب الذّاهبين والتّعبير عن الحسرة علَى مَا ضاعَ. وكانت عادة الشعراء أن يبدؤوا مَراثيهم بمُقدّمات يذكُرونَ فيها أحوال المرثي وظروفه التي أدركته المنون فيها، وكانت أهميّة هذه المداخل في زيادة مستمرّة على أيدي المحدثين".[4]

ونجد الرّثاء يتعلّق بالنّفس الإنسانيّة لما تحملُهُ من مشاعر مَكلُومة "فهو لغة القلوب وحديث العاطفة، وهو آية المحزون وَصَرْخَتَهُ وقطعة من قلب المفؤودِ، وَكَبِدُهُ المُتَقَطِّعُ، وآية نَاطقة بفداحة الخطبِ وَهَول المُصَابِ، لاَ تُرسِلُهُ الألسنة إلاَّ من صُدورٍ مكلومةٍ وأفئدةٍ مُوجعةٍ ونفوسٍ باكيَّة وقلوبٍ مُلتاعةٍ. شَفَّهَا الحُزْنُ وَأضنَاها الأسى".[5]

وممّا لا شكّ فيه أنّ "قصّة رثاء الشّعر الأندلسي للوطن الإسلامي الأندلسي فريدة من نوعها في مسيرة شِعرِ أيةِ أمَّةٍ من الأمم".[6]

فمن هنا عُدَّ الأندلسيون "أهلُ عاطفة ووجدان حي يؤثّرُ فيهم المُصَابُ وَتُحزِنُهم النَّازِلَةُ وهم بعدُ قوّالون مُجيدون".[7]

---

[1]- ايميل ناصيف مرجع سابق، ص05.

[2]- يونس طُركي سلّوم، المعارضات في الشعر الأندلسي، دراسة نقدية موازنة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1 2008 8 0 189.

[3]- منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ص 135.

[4]- غارسيا غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوّره وخصائصه، ص 61.

[5]- عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص 133.

[6]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 505.

[7]- عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص 133.

وكان لرثاء الممالك الأندلسيّة النّصيب الأوفرُ من اهتمام الباحثينَ إذ يقول أحدهم: "وأمّا رثاء الممالك البائدَةُ فهو نتيجةَالإنقلابات السيَّاسية وتطويح الدّهر بالدُّول فوقَف الشعراءُ عَلَى أطلالهَا يندبونَ عِزّها الحائل ومجدها الزائل ويتأمّلُونَ في صروف الأيّام التي لا تُبقى أحد، فبكَى ابن اللّبانَة على دولة العبّاديين، وابن عبدون على دولَة بني الأفطس، وندبَ أبو البقاء الرّندي حَظَّ الأندلُس". [1]

3- نظرة تاريخية:

بدايةً نحن نعرف أنّهُ قد "عاش العرب في الأندلس ثمانيةَ قرون تمتدُّ من فتحها على أيدي المسلمينَ بقيَّادة طارق بن زياد سنة 92هـ/ 711م، حتى رحيل آخر ملك مسلم عن قصر الحمراء سنة 897هـ/ 1492م". [2]

ويرى الشَّكعة أنّه قد "انسحب تمدُّهم على جيرانهم الأوروبيّين وانساحت حضاراتهم إلى ساحاتهم، وتغَلغَلَت صُنُوفُ مَعارفهم". [3]

إضافة إلى ذلك "كان من الصُّعوبة بمكان تَصنيف شعر رثاء الوطن الإسلامي الأندلسي إلى موضوعات جانبيّة بعينها، لأنّه قيل مُتابعًا الأحداث، مُلاحقا المصائب، مُرافقًا الكَوارث، ومن ثمَّ فقد كانت مسيرةُ هذا الشّعر الحزين مَسيرة تاريخيّة يُسجّل كلَّ حادثة في زمانها، ويبكي كلّ كارثة في وقتها". [4]

ولو عدنا إلى كتب التاريخ وَتَعَمَّقْنَا في البحث فيها لوجدنا "أنّ مساحة الأندلس تَقَسَّمَتْ إلى اثنين وعشرين دَوْلَةً؛ فَتَفَتَّتَ المُسْلِمون في الأندلس تَفَتُّتًا لَمْ يُعْهَد مِن قَبْلُ في تَارِيخِهِم، وَفَقَدُوا بذلك عُنْصُرًا مُهِمًّا جدًّا مِن عَنَاصِرِ قُوَّتِهِم وهو الوِحدَةُ، فَكانَ الهُبُوطُ عَلَى أَشَدِّ مَا يَكُون". [5]

---

[1]- حنّا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، دار الأصالة، الجزائر، الطبعة 212 1987 7 9 801.

[2]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 139.

[3]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 505.

[4]- المرجع نفسه، ص 512.

[5]- راغب السّرجَاني، قصّة الأندلس من الفتح إلى السقوط ج1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2010 0 0 322.

ويضيف أحد الباحثين ما يلي "وَتُقَسَّمُ الأنْدَلُس إلَى دُوَيْلات حَكَمَت كُلٌّ مِنْهَا مدينةً وَبَلَغ عَدَدُ تِلْكَ الدّويلات أكثر من عشرين دُوَيلَة. وكان من أشهرها دَوْلة بني عبّاد في اشبيلية، وبني جَهُور في قُرطبة، وبني ذي النّون فيطُلَيْطلة وبني الأفطس في بَطَلْيوس".[1]

فمن خلال هذا الانهيار الذي حَدَثَ للأندلس "قَد أَدْرَكَت طَائِفَةٌ مِنَ المَرَاثي السّياسيّة شُهْرَةً وَاسِعةً في الأدب الأندلسي وقد قيلت هذه المراثي في مُنَاسَبَات زَوَال الدُّول".[2]

فمن جانب آخر "إنّ الأحداث المأساوية التي مرَّت بهَا الأندلس وخلّفَها لها القرن الثالث عشر فيمَا نرَاه في هذا الاستيلاء النَّصْرَانِي لجانب كبير من الأندلس، لم تُؤَثّر هَذِه الأحداث عَلَى مكانة الشِّعرِ وَقيمَتِه".[3]

كَمَا أنّ "الشُّعَراء اللاّحقين من الجيل التالي استطاعوا أن يُحَقِّقوا انتعاشًا وازدِهَارًا للمرثيّات وذلك لَفقدِ أو لسقوط الأندلس".[4]

واثْرَ هذا التقَسُّم والدَّمَار "كان كُلَّمَا سَقطَت مدينةٌ في أيدي النَّصارَى، أضيفَت إلى المرثية أبيات جديدة لا تُضاهي الأصلَ دَائِمًا في جودتِهَا".[5] وسيكون موضوعنا اللاّحق عن سقوط هذه المدن حيث "تعدّدت القَصَائِدُ والمقطوعات الأندلسيّة في هذا الغرض، وكان أغلَبُهَا صَادِقًا صَدَرَ عَنْ حزن بالغ وعاطفة حقيقيّة، فحمل زَفرات الألم وحُرقَة الفراق،لأنَّهُ صَدَرَ عن مشاعر مَكلومَة ونفس مُمزَّقَة، وكان بَعْضُهَا فاترُ العاطفة... مَعَانيها مُكَرَّرَةً، ينقُصُهَا الكثيرُ مِن الصِّدقِ والإخلاص".[6]

كما كان التَّقسيم في عهد ملوك الطوائف، حيث قُسِّمَتْ فيه بلاد الأندلس إلى سَبْعِ مَنَاطق رَئيسَة أهمّها:

- بنو عبّاد: وهم ينتمون إلى العرب من بني لَخْمْ، وقد أَخَذُوا منطقة اشبيلية.

---

[1]- محمد حسن قجّة، دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، محطات أندلسيّة، الدار السعودية، الطبعة الأولى، 1985 5 9 177.

[2]- غارسيا غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوّره وخصائصه، ص 61.

[3]- ماريا خيسوس روبيرا متى، الأدب الأندلسي، ترجمة: أشرف على دعدور، المجلس الأعلى للثقافة، 1999 9 9 138.

[4]- المرجع نفسه ، ص 140.

[5]- أغناطيوس كراتشوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي، ص 133.

[6]- العربي سالم الشريف، دراسات في الأدب الأندلسي، ص 60.

- بنو زيري: من البربر وأخذوا منطقة غرناطة.
- بنو جهور: وكان زعيمهم أبو الحزم بن جهور، وأخذوا منطقة قُرْطبَة.
- بنو الأفطس: أخذوا إمَارَة بَطليوس الواقعة في الثغر الأدنى
- بنو ذي النّون: أخذوا منطقة طُلَيطِلة.
- بنو عامر: وهم أولاد بني عامر، وكانت عاصمتهم بلنسيّة.[1]

المبحث الأول: البذور الأولى للرّثاء عند أهل المشرق

من وجهة نظر أحد الباحثين أنّ "بكاء المدن الزّاهرة شعرًا حين تأتي عليها الفتن المُدمّرَة، والممالك حين تذهب بها الثّورَات العاتية له أصول مشرقيّة، أوّل ما تلتقي بها في تلك الدّموع الغزيرة التي ذرَفَها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون عام 197هـ-812م، حين حاصَرَهَا طَاهر بن الحسين قائد جيش المأمون".[2]

حيث "كانت بغداد أوّل مدينة تعَرَّضَت للتّدميرِ والحريق في صدر الدّولة العبّاسية حين استعر الخلافُ بينَ المأمون والأمين. وهَجَمَت الخَرَسانيّة بمجانيقِها ورِمَاحِهَا وخيولهَا، واشتَطّت اشتطاطًا ظَالمًا في نسفِ بغداد وترويعها".[3]

من خلال ما سبق نستنتج أن غرض الرّثاء كان في بداياته من صنع المشارقة "ولو ألقينا نَظرَةً على سَفحِ التّاريخ لَوَجَدنَا الشّعرَ سِجلاًّحافلاًفي تصوير النّكبات التي حَلّت في العالم الإسلامي بجنَاحَيهِ، المشرق والمغرب، فقد رثى أبو العبّاس الأعمى دولة بني أميّة، ورَثَى آخرون دولة العبّاسيّينَ بدخولِ المغول إلى بغداد. وَدولة الطُّولَنيّين وغيرها منَ الدُولِ".[4]

وقد اشتَهَرَ شعراء المشرق برثَاءِ المُدن من أمثال الخُرَيمي (240هـ) وابن الرّومي في رثاء مدينة البَصرَةِ عندَمَا أغَارَ عليهَا الزّنج سنة (255هـ). وهذا ما سنقوم بذكرِهِ لاحِقًا.[5]

---

[1]- ينظر، راغب السّرجاني، قصّة الأندلس، ج21 0 323.

[2]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص 201.

[3]- محمد رجب اليوّمي، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ص 212.

[4]- منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص 305.

[5]- ينظر، سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 139.

وفيما يرى محمد رجب البَيّومي أنّ "المُتَصَفِّحَ لِكُتُبِ الأدَب والتاريخ يرى رثاء المُدن ذائعًا في كُلِّ محنَةٍ تَجِدُ، وَلَمْ يتَعَرَّض أمثالُ الطّبري وابن الأثير والمسعودي لمحنةٍ مَا إلاّ رَوَوا عَنهَا في كُتُبِ التَّاريخِ فَضلاً عن كُتُبِ الأدَب الخالص، نماذِجَ رَائعة فيهَا الرِّثاء الصَّارخ".[1]

فقد عَرَفت بغداد عدّة شعراء بكَوهَا في قَصَائدِهم أمثال الورّاق فعندما كَثُرَ الخراب والدَّمار والهدمُ حتّى دَرسَت محاسن بغداد يقول العتري الورّاق:[2]

مَن ذَا أصَابَكِ يَا بغدَادُ بالعيــن … أَلم تَكـــوني زَمَــانًا قُـــرَّةَ العيــــن !

ألم يكُن فيك قومٌ كانَ مَسكَنهُم … وَكانَ قربُهُــم زيــنًا مــن الزّيـن!

صَاحَ الغُرَابُ بِهِم بالبَين فافـترَقوا … مَذَا لَقِيتُ بِهِم من لَوعَةِ البَيــنِ!

أ ستودِعُ الله قَومًا مـَـا ذَكرتُــهُمُ … إلاّ تَحَدَّرَ مَاءُ العينِ من عَــيني

كَانوا فَفَرَّقَهُم دَهــرٌ وَصَدَّعَهُــم … وَالدَّهرُ يَصدَعُ مَا بين الفَريقَين

ومما زاد الطّين بَلَّة أن "اهتبَل الفُرصَةَ فريقٌ من الأوشابِ والرَّعَاعِ فَتَسَوَّرُا القُصُورَ والمَتَاجِرَ واقتحَمُوا الدُّورَ، ونَهَبُوا الأموالَ وَهَتَكُوا الأعراضَ وكانت محنة مُروِّعة لم يكن أحد ليتصوَّرَهَا في عهد بني العبّاس".[3]

أمّا الشاعر إسحاق بن حَسَّان أبو يعقوب الخُرَيمي فقد قال عن مَدينَته بغداد، قصيدة طويلة في مئةٍ وَخَمسةٍ وثلاثين بَيتًا، وَصَفَ فيهَا ما حلَّ ببغداد في نبرةٍ آسيةٍ، ولوعة صَادِقَةٍ، صَوَّرَ خلاَلَهَا الفتنة تَصويرًا دَقِيقًا مُسهَبًا، لتبدوا أمام العين، حينَ قرَاءَتهَا، صوَّر التّخريب والدَّمار.[4]

هذا الشاعرُ الذي هالَهُ أن تصبحَ بغداد العظيمة مَوضِعَ الحَسرَةِ والفجيعَةِ وتعَاظُمِه أن يَجِدَ السَّفَلَةَ من الأوشابِ يرأسونَ المُظَاهَرَات لاقتحامِ الدّور واغتصاب الأموال وَسلبِ العفافِ.[5]

[1]- محمد رجب البيّومي، الأدب الأندلسي تأثير وتأثر، ص 211.

[2]- أبي جعفر محمد بن جرير الطّبري، تاريخ الطّبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ج18 22، مصر، ص 446-447.

[3]- محمد رجب البيوّمي، الأدب الأندلسي، ص 212.

[4]- ينظر، الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص 201-202.

[5]- ينظر، محمد رجب البيّومي، الأدب الأندلسي تأثير وتأثر، ص 213.

فلم يحن عليه أن يترُك مدينتهُ الجميلة أن تذهب سُدًى في يد الأعداء "فأرسَلَ زَفرَاتِه الحارّةِ كاويَّةً لاهِبَةً في قصيدة مُؤَثِّرةٍ باكيّة...، هذه القصيدة الرائعة لم تحفِل بهَا كُتُب الأدب، فَتُشيد باتجَاهِها الوَاقعي، وَتعبيرِهَا المُؤَسّي، واتساع منَافذِ الشعور وإبعاد الخيال ومطارح التَّصوير لدى قائلِهَا".[1]

قال الخُريمي يَذكر بغداد ويصف ما كان فيها:[2]

قالوا: وَيلعبُ الزَّمانُ ببغــ | دَادَ وَتعَثَّرَ بهَـا عَـوَاثِرَهَـا
إذ هي مثلُ العَرُوسِ بَاطِنُهَا | مُشَوِّقٌ للفَتَى وَظَاهِـرُهَـا
جَنَّةُ خُلــدٍ ودَارُ مَغبـــطَةٍ | قَلَّ منَ النَّائِبَاتِ واثرهـــا
دارُ مُلُوكٍ رَسَّت قواعــدُهَا | فيهَا وَقَرَّت بهَا مَنَــابرُهَـا
أهلُ العُلاَ والنَّدَى وأنديّةِ الـ | فَخرِ إذا عُدِّدَت مَفَاخِرُهَا

فالشاعر نَظَمَ أجمل قصيدة حين وصف مدينته كيف غدرها الزّمان وَحَلّت بهَا النّوائب وأنها دار ملوك وأعزّةٍ.

فالقصيدة في بدايتها عبارة عن حديث سهل مؤثر في النّفوس، تهُزُّ القلوب، لا يعمُدُ إلى قعقَعَةٍ صَاخِبَةٍ، تَصُكُّ سَمعَكَ، وَلاَ يُنَادي صَاحِبهُ على نفسهِ بالرَّصَانَةِ المُفتعلة ليذهبَ لَهُ ذِكرٌ في جودةِ الحوك وزركشة الوَشيِ، وإنّمَا هي نَظرَةٌ المتأمِّلِ وعبرةُ الذّاكِرِ.[3]

ومنها أيضًا قوله:[4]

يَا بؤسَ بغــــدَادَ دَارَ مملَكَــةٍ | دَارَت علَى أهلِهَـــا دَوَائِرُهَـــا
أمهَلَهــــــا الله ثُمَّ عَاقَبَـــهَا | لَمَّا أحَاطَـــت بهَا كَبَائِرُهَـــا
بالخَسفِ وَالقَذفِ والحريقِ وبالـ | حَربِ التي أَصبَحَت تُسَاوِرُهَا
كم قد رأينَا من المعاصــــي ببغـدَا | دَ فهَل ذو الجلالِ غافِرُهَــــا

[1]- محمد رجب البيّومي ،الأدب الأندلسي ، ص 213.
[2]- الطّبري، تاريخ الطّبري، ص 448.
[3]- ينظر، محمد رجب البيّومي، الأدب الأندلسي تأثير وتأثر، ص 214.
[4]- الطّبري، تاريخ الطّبري، ص 450-451.

حَلّـــت ببـــغداد وهي آمــنَةٌ داهية لم تَكُـــن تُحَاذِرُهَـــا
طَالَعَهَا السّـــُوءُ من مطَالِعِـــهِ وَأدركَت أهلَهـــا حرَائِرُهَـــا

***

فتلك بغداد مَا يُبنَّى مــن الــذِّ لَةِ في دَورِهَـــا عَصَـــافِرُهَـا

أمّا في هذا المقطع فالشاعر يتأسّف ويتحسَّرُ على ديارِهِ بغداد كيف دارت على أهلِهَا ويردُّ ما حلَّ بِهَا من كوارث وَوَيلات ودمار وخراب إلى الكبائر والمعاصي التي كانت بتلك الأرض طَالِبًا من الله الغفران.

وقال أيضًا شاعِرُهم الورّاق:[1]

النّاسُ في الهَدمِ وفي الانتقال قد عرَّضَ النَّاسُ بقيلٍ وقال
يَأيُّهَا السَّائِلُ عن شأنِهِـــمُ عَينُكَ تَكفيكَ مَكَانَ السُّؤال
قد كان للرحمن تكبيرهـــم فاليومَ تكبيرُهُـــم لِلقتَـــال
لم يبقَ في بغداد إلا امــرُؤٌ حَالَفَهُ الفَقــرُ كثيرُ العيـــَّال

وقال أيضًا:[2]

وَلســـتُ بتَارِكٍ بغَدَادَ يَومًـــا تَرَحَّلَ مَنَ ترَحَّلَ أو أَقَامَـا
إذَا مَا العيْشُ سَاعَدَنَا فلسنا نُبَالي بعدُ مَن كَان الإمَامَا

وفي النهاية قد ختم الشّاعرُ المُلقَّبُ بالوَرَّاق قَصَائِدَهُ بعَدَمِ الرَّحيل من موطنِهِ وأرضهِ التي ترَعرَع فيها مَهمَا كَلّفَ الأمر.

وبعد النّكبة التي مَرَّت عَلَى مدينة بغداد "وذلك بثَمَانينَ عَامًا أو بالدّقة في سنة 277هـ-890م اقتَحَمَ الزَّنج مدينة البصرَة في ثورتهم التي قاموا بها، وَقَاوَمُوا الدّولَة خِلالَها أَربَعَة عَشَرَ عَامًا".[3]

[1]- الطبري ،تاريخ الطّبري ، ص 460.
[2]- المصدر نفسه ، ص 460.
[3]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص 202.

وقد عَرفَت البصرة مثل غيرها في فن الرّثاء أعظم شُعرائِهَا وأبنائِهَا الذينَ عبَّرُوا في قصَائدِهم بأسمى الكلمات وأروعِ الأمثال وأصدق عبارات الحُزن والألم والتفَجُّع على فُقدان مَوطنهم وإثرَ هذه النَّكبة العظيمة "وَجَدَت البصرة ابن الرّومي الشاعر الذي يبكيهَا، فوصَفَ غَلَبَة الزَّنج عليهَا، والمآسي المُرَوِّعَة التي تَعَرَّضَت لَهَا".[1]

يقول الشاعر ابن الرّومي:[2]

ذَاذَ عن مُقلَـــتي لَــذيذَ المَنَـــام شُغلُهَا عَنهُ بالدُّمُوعِ السِّجام

أيُّ نوم من بعدمَــا حـــلَّ بالبصــ رَةِ من تِلكم الهُنَاتِ العِظَـام

أيّ نومٍ من بعدما انتهَـــكَ الزَّنـــ جُ جِهَاراً مَحَــارِمَ الإســلام

***

لَهَفَ نَفسي عليكِ أيَّتُهَا البَصــ رَةُ لَهَفًا كَمثلِ لَهَبِ الضِــرام

لَهَفَ نَفسي عليكِ يا مَعْدَنَ الخيـ رَاتِ لَهَفًا يَعُضُّــنِي إبهَامِــي

لَهَفَ نفســي يَـــا قُبَّةَ الإســـ لامِ لهفًا يَطولُ منهُ غَرَامِــي

فالشَّاعرُ هنا يتلهَّفُ لمَا حَلَّ بالبَصرةِ من الكوارث وهو يُكثر من كلمَة (لَهَفَ- لهفًا) ويَستعملُ أسلوب التّكرار ليُوَضّحَ للقارئ مَدى تَعَلّقه بالبصرَة التي دَمَّرَهَا الزَّنج.

ويقول ابن الرومي أيضا:[3]

بينَمَا أهلُهَا بأحســـن حَـــالٍ إذ رَمَاهم عبيدُهم باصطلام

دخَلوهَا كأنَّهُم قِطَـــعُ اللّيــ لِ إذَا رَاحَ مُدْلَهِمَّ الظَّـــلامِ

طَلَعُوا بالمُهَنَّدَاتِ جهراً فَألقَت حَمْلَهَا الحَامِلاتُ قبلَ التَّمَـامِ

وحَقيقٌ بـــأن يُـــراعَ أُنَـاسٌ غُومِضُوا من عدوهم باقتحامِ

أيُّ هولٍ رأوا بِهم أيُّ هَـــولٍ حُقَّ منهُ تَشيبُ رَأسُ الغُلامِ

[1]- الطاهر أحمد مكّي ،مرجع سابق ،ص 203.

[2]- ابن الرّومي، ديوانه، شرح أ.أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، الجزء 3، بيروت، لبنان، ص 338-339.

[3]- المصدر نفسه، ص 339.

قصيدة ابن الرومي الميميَّة طويلة ألّفها حين نَكبَة البَصرَة يَصفُ مَا حَلَّ بهَا من فتن ودَمَار وخرَاب ونهبٍ واعتداء بأسلوب مُمتعٍ ولغةٍ راقيةٍ.

وبعد الذي رأيناه يذهب محمد رجب البيُّومي ليُقارن بَين مراثي بغداد والبَصرة برثاء مُدن أخرى إذ يرى "أنّ بغداد رثّيت برثاء كثير في هذه المحنة كما رُثّيت جَميع المدن...، ولكن هذه المراثي لم تبلغ من الرّوعة مَبلغ مرَاثي الخُرَيمي وابن الرّومي وأمثالهما لانحدار الشّعر العربي بعامَّة في عُصور الغزو والتَّتري".[1]

نستنتج ممّا سبق أنّ الرّثاء قد وُجد منذ القدم وبدأت بذوره تنضج عبر العصور إلى أن وصل إلى المشرق والأندلس.

ويتساءل الطّاهر أحمد مكّي، ما إذا كان أمر الرّثاء في الأندلس تقليدًا لما جرى في المشرق؟ ثم يتقاطع مع قوله ضاربًا المثل بقصيدة الخُريمي، في فتنة الأمين والمأمون أنّها لم تبلغ الأندلس، لأن صاحبها شعوبي مُتعَصب لقومِهِ وجنسِهِ، لكن القصيدة تبلغ من الجمال والقُوَّة مَبلغًا واسعًا، رُبَّما لأنه متعصب أوّلا أو محاولة لنسيان الفتنة ثانيا.[2]

أمّا ابن الرومي فبعيد أن يكون بقصيدته وراء العاطفة التي تَفَجَّرَت بين جَوانح ابن حزم وصاحبه، فَشتَّان بين الأمرين، فذاك يبكي مدينة سَمِع بخرابها، وهذان يَبكيَّان مَهابطا طالما تردّدا في أرجائها.[3]

بعدما رأينا هذه النّماذج من الرّثاء في تلك المدينتين نجد "أنَّ غير ذلك من أنواع الرثاء فلم يكن لهم فيه على غيرهم ظَاهرُ فضلٍ ولا كبير إحسان، ولكنّهم معهم كأبطال السّباق يُسبقون تارةً ويَسبَقون أخرى".[4]

[1]- محمد رجب البيّومي، الأدب الأندلسي تأثير وتأثر، ص 219.
[2]- ينظر، الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 203.
[3]- ينظر، المرجع نفسه، ص 204.
[4]- عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص 141.

وفي الأخير كلّ ما يمكن قوله أنَّ "المشارقة لم يتوسّعوا في هذا الفَن، على نحو ما نجده عند الأندلسيّين، وممّا جعله فنّا قائما بذاتهِ في الشعر الأندلسي، أنهم رأوا مُدُنهم وممالكهم تَسقُط واحدَةً تلو الأخرى".[1]

ومن هنا يرى الطّاهر أحمد مَكّي أنَّ "بكاء الممالك المنهارة والمدن الذّاهبة فن أندلسي أصيل...)جدت دوافعه في المشرق والمغرب على السّواء".[2]

المبحث الثاني: رثاء المدُن الأندلسيّة:

1- رثاء مدينة طليطلة:

كانت المدينة الأندلسيَّة طليطلة(Toledo) في بداياتها تُمثّلُ عينَ الاهتمام من الوُلاّةِ والأمراء، وكانت تُعرف بالثّغرِ الأوسطِ، ويبدوا الطّابع الجهادي في التَّسميَّة وَاضحًا ذا معنى مهم وخطير؛ إذ أنّها تُمثّل الحاجز الشَّمالي الأوسط للدَّولة الإسلامية في الأندلس ضدَّ غارات الممالك النَّصرانيّة.[3]

وبعد الانهيار الذي عرفته الأندلس "قُدِّر لطليطلة أن تكون أولَى المدن الكبرى الذّاهبة، ورغم أنّها لم تسقط في حربٍ، ولم يخسرها المسلمون في قتال، إنّما ذَهَبَت نتيجة خدعةٍ ماكرَةٍ من ألفونسُوا السّادس، واستسلام مُهين من القادر يحي بن ذي النّون...، وكانت محنة حقيقيّةً لمَا تُمثّلُه طليطلة من ثقلٍ في حياة الأندلس السياسيّة والحربيّة والشعوريّة".[4]

وهذا ما أَكَّدَ عليه المقرّي في نَفح الطّيب أنَّ "طُليطلَة أعَادَها الله تعالى من أوَّلِ مَا أَخَذَ الكُفّارُ من المُدُنِ العِظام بالأندلس".[5]

---

[1]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 139.

[2]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 205.

[3]- ينظر، راغب السّرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج1 368.

[4]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسيّة، مرجع سابق، ص 226.

[5]- المقرّي، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، 447/4.

وفي رأي أحد الباحثين أنّه "كان نتيجة زلزال عصر الطّوائف هو سقوط طليطلة...، هذا الثّغر الإسلامي الأعلى في بلاد الأندلس، تلك المدينة العظيمة التي كانت عاصمة للقوط قبل دخول المسلمين في عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد".[1]

إضافة إلى ذلك "كان سُقوط طُليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بَدءَ المأساة فهي أوّل بلد إسلامي يُسلّم إلى الفَرَنجَة دون أن ينتبه مُلُوك الطّوائف لما يوشِكُ أن يعصِفَ بهم من برُكان".[2]

وهكذا أضحت طليطلة وحيدة بلا مأوى تنتظرُ سَاعَة الحَسرَةِ والسُّقُوط، كمَا تُركِت طُليطلة المدينة المنكوبة لمصيرها التَّعِس".[3]

كما أنّ طُليطلة "لم تجد من جيرانها المسلمين من يشدّ أزرها غير الملك الشَّهم صاحب بَطليوس ابن الأفطَس إذ دافع عنها ما استطاع ولكن قوّة الفرنجة كانت بحيث لا يثبت أمامها غير التعاون المحتشد المترامي".[4]

وهكذا أصبحت طُليطلة ضحيّة السقوط والانهزام حيث "مضى على الحصار إلى الآن تسعةَ أشهُرٍ، وتحطَّمت كلّ الآمال المرجوَّة في الصُّلح والهُدنَة، وهكذا عُرِضت المدينة للتَّسليم، بعد أن عجزت عن المقاومة، وبعد أن سلَّمَها ملوك الطّوائف ثمنا لدينهم، وشَرفِهم وعِزَّتهم".[5]

وإثر هذه الهزيمة والحصار والانهيار، وهذا السّقوط المفاجئ لمدينة طُليطلة، شهدت هذه الأخيرة بعض المراثي من شعرائها الذين ضحّوا من أجلِها، وجَعَلوا لها مكاناً في قصائدهم من أمثال ابن العسّال*.

ومما وَرَد في كتاب مصطفى الشكعة (الأدب الأندلسي) أنّه قال: "لقد كان سقوط طُليطلة صَدمةٌ كبرى أصَابت المسلمين في الأندلس بالذّهول الذي ما لبث أن ترجم إلى الحقيقة المريرة التي

---

[1]- راغب السّرجاني، قصة الأندلس، ج2 451.

[2]- رجب البيّومي، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ص 221.

[3]- ينظر، راغب السرجاني، قصّة الأندلس، ج2) 455-456.

[4]- رجب البيّومي، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ص 222.

[5]- راغب السّرجاني، قصة الأندلس، ج22 4562.

* هو أبو محمد عبد الله العسّال، زاهد طليطلة المشهور بالكرامات، وإجابة الدّعوات، انظر، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2) 21.

عبّر عنها الشّاعر عبد الله بن فرج اليَحصُبِي المشهور بابن العسّال تعبيراً مُثقلاً بالشُّؤمِ مُتَنبّئا بغُروب شمس الأندلس".[1]

وجاء في النَّفح كذلك "ومن أوّل ما استَردَّ الإفرنج من مُدنِ الأندلس العظيمة مدينة طُليطلة من يد ابن ذي النّون سنة 475هـ".[2]

وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليَحصُبي المشهور بابن العسّال:[3]

يَا أهلَ أندَلسٍ حُثُّوا مَطِيّكُم   فَمَا المُقَـــامُ بِهَا إلاَّ من الغَلَــطِ

الثَّوب يُنسِلُ من أطرَافـــــهِ   ثَوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوســطِ

ونحن بين عدوٍّ لا يُفارقُنــــا   كَيفَ الحيَاةُ مع الحيَّاتِ في سفَطِ

فهذه الأبيات عبَارةٌ عن صورة عَجيبة يَنقُلها لنا الشَّاعرُ المُحبَطُ كأَنَّهُ يدعو أهلَ الأندلس جميعا بكلّ طوائفهِ ودُوَّيلاته إلى الهجرة والرَّحيل إلى بلاد أخرى غير الأندلس، أمّا البقاءُ بها ما هو إلاّ ضَربٌ من الغلطِ، فإذا انسلّت مثلا حبة من العقد فإنّ الباقي لا مَحَالة مفروطٌ وهكذا الشأن في مدينة طُليطلة التي تقعُ في وَسَطِ الأندلس، فما من طريق إلاّ الفرار وشدُّ الرّحال.[4]

ويُروى البيت الثاني من ذلك المقطع الشعري بشكل آخر، لكن هدف المعنى لا يتغيّر على هذا الشكل:

الثَّوب يُنسل من أطرافِهِ وأرى   ثَوبَ الجزيرة منسُولاً من الوسطِ[5]

ويروى صدر البيت الثالث هكذا:[6]

من جاَوَرَ الشَّر لا يأمن من بوائِقَهُ   كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَطِ

---

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 513.

[2]- المقرّي، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، 352/4.

[3]- المصدر نفسه، ص 352.

[4]- ينظر، راغب السّرجاني، قصّة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج2) 459.

[5]- ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 514.

[6]- المقرّي، نفح الطّيب، 352/4.

وتُروى الأبيات هكذا:[1]

حُثُّوا رَوَاحِلكُم يا أهلَ أندلـــسٍ   فــمَا المُقامُ بهـــا إلاّ مــن الغَلَــطِ
السّلكُ يُنثر مــن أطرافِهِ، وأرى   سِلك الجزيرة مَنثوراً مــن الوَسَــطِ
من جاور الشَّر لا يأمن عوَاقِبَهُ   كيفَ الحياةُ مَعَ الحيَّاتِ في سَفَطِ

وقصيدة الشاعر ابن العسّال في رثاء طليطلة ما هي إلاّ "صوتٌ غريبٌ أجّشَ في الأسماع، لأنّهُ بدلَ أن يبكي ما حلَّ بوطنه يحُذّر الأندلسيين من الإقامة فيه، ويَدعوهم إلى الرَّحيل، ولو فهمنا الأبيات على ظاهرها لقلنا إنّها تُمثِّل مَوقفًا انهزاميّا، ولكن هذا اللّون من التَّعبير السلبي يَستهدِفُ في الحقيقة المبالغة في النّذر والتّذكِير".[2]

كما نجد هذا الرأي من نفس رأي إحسان عبّاس إذ يقول: "ولو كُنَّا نُحاسِب ابن العسّال حسب ظاهر كلامِهِ لقلنا أنّه قد آثر موقفًا انهزاميّا، ودَعَا فيه قومَهُ إلى الجلاء عن أوطانهم لأنّ طُليطلة سَقَطت وهي في وَسَطِ البلادِ، والثّوب إذا نسل من وسطِهِ فقد انتهى أمره".[3]

وقال آخر:[4]

يا أهلَ أندلسٍ رُدُّوا المُعارَ فَمَا   في العُرفِ عَـــاريَّةٌ إلاّ مَــرَدّاتُ
ألَم ترَوا وبَيْدَقَ الكُفَّارِ فرَزَنَـــهُ   وَشَاهُنا آخِرَ الأبياتِ شَهَماتُ

ويذكر الشكعة في كتابه أنّ هذا الشّاعر أكثرُ تشَاؤُمًا بل إنّهُ داعيّة إلى الخرابِ، مُتَطوّعٌ لبثَ رُوح الهزيمة يستعمل اصطلاحات لاعبي الشطرنج.[5]

[1]- المقري ، نفح الطّيب ج4 ص 352.
[2]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص 227-228.
[3]- إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 147.
[4]- المقرّي، نفح الطّيب، ج4 7 3521
[5]- ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 514.

ويُعلّلُ أحد الباحثين السّبب في نُدرة الشّعر في هذه المرحلة قائلاً "يمكن تعليل قلة الشعر المروى في سقوط طليطلة بَدْءاً بأنّ الحرب كانت لا تزال سِجَالاً، وأنّ المسلمين ثأروا لهزيمتهم في معركةِ طليطلة، قبل مضي عام واحد بانتصارٍ حاسمٍ ورَائعٍ في معركةِ الزّلاقة عام 1086م".[1]

فضلا عن ذلك "كان للأحداث التي وقعت بعد سقوط المدينة صدى أضخم من الأحداث التي صاحبت السقوط، بين سكّان المدينة أنفُسَهُم أو بين بقيّة مواطينهم في حواضرِ الأندلس، وعلى نحوٍ خاصٍّ ما اتصل منها بالدّين والعقيدة".[2]

وقد وَرَد في النّفح للمقرّي في رِثاء طليطلة قصيدة من عيون الشّعرِ، ضمَّنها الشّاعرُ كلّ أحَاسيسهِ بالحَسرةِ ومدّها بكلِّ مَا رَفَدَتهُ به شاعرِيَّتَهُ، وفي أبياتِها دعوةٌ إلى الاستنفار والتّركيز على وضعِ الكارثة في حجمها الحقيقي.[3]

كما أنَّهَا "قصيدة باكيّة تبكي طليطلة وتُسجِّلُ المِحنة القاصمة تسجيلًا يستدرُ الدُّمُوعَ وهي لشاعر مجهولٍ طَالت به الحسرة".[4]

ويضيف الطّاهر أحمد مكّي أنّها "قصيدة وحيدة طويلة تبلغُ اثنين وسبعين بيتًا...، ويبدؤُهَا الشَّاعرُ مُتَسائِلاً في عجبٍ: هل في الأندلسِ من يُقرُّ هادئًا وقد ضاعت طُليطلة ،فهدّ بضياعها ركن الدّين الحصين، وتوالت بعدَهَا النَّكباتُ والمَصَائبُ".[5]

ونرى إحسان عبّاس يقول: "وبعدَ أن يصوّر الشَّاعر انقلاب الأوضاع ويَتَفَّجعُ على ما أصاب الحَرَائر المصونات نراهُ وكأنَّمَا ينتدب نفسهُ للرّد على تلك الأفكار التي كان يوردها ابن العسّال، مثل قوله أنّ المصائب تحُلّ بسبب الذُّنوبِ".[6]

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى إلى الإسلام:[7]

---

[1]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص 228.

[2]- الطاهر أحمد مكي 28 228.

[3]- ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 514.

[4]- محمد رجب البيّومي، الأدب الأندلسي تأثير وتأثر، ص 222.

[5]- الطّاهر أحمد مكّي،دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص 229.

[6]- إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 147.

[7]- المقرّي، نفح الطيب، ج4 483.

لِثُكلِكَ كيفَ تبتسمُ الثغــورُ سُرورًا بعدَمَا سُبيت ثُغُورُ
أما وأبي مُصـــابُ هُدَّ منــهُ ثبيرُ الدّين فاتّصلَ الثُّبورُ
لقد قُصِمت ظُهورٌ حين قالوا أميرُ الكافِرينَ لهُ ظُهُــورُ
ثرى في الدَّهرِ مســروراً بعَيْشٍ مضَى عنَّا لِطيّتِهِ السُّرُورُ

القصيدة طويلة إذ "يمضي في تساؤلِه: أليسَ بالمدينةِ شهمٌ يقاومُ الاحتلال ويحرّرها من العبوديَّةِ؟". [1]

ويقول أيضًا: [2]

أليسَ بها أبيُّ النَّفــسِ شَهــمٌ يُدير على الدَّوائـر إذ تدُورُ
لقد خَضَعَت رِقَابٌ كنَّ غُلبًا وزَاَل عُتُوُّهَــا وَمضَى النُّفُــورُ
وَهَان على عزيز القــومِ ذُلٌّ وسَامحَ في الحريم فتَى غيُورُ

فالشاعر يخلص من المقدّمة العامّة ليعرض ما جرى بطليطلة نفسها حيث انتصر الكاثوليك واستولوا على المدينة، ذات الحصون العاليّة، والتي كانت معقل الإسلام وصارت دار كفر وحوّلت مساجدها إلى كنائس. [3]

ومنها: [4]

طليطلة أبَاحَ الكُفرَ مِنهَـــا حَماها، إنَّ ذا نبأٌ كبـــــيرٌ
فلَيسَ مِنها ايوانُ كِســرى ولا منهَا الخَوَرْنَقُ والسَّـــديرُ
مُحَـــصَّنةٌ مُحَـسَّنَةٌ بعيــدٌ تَنَاوُلُهَا ومَـــطلَبُها عســيرُ
ألم تَكُ معقَلاً للدّين صَعبًــا فَذَ للهُ كمَا شَاءَ القــديرُ

---

[1]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص 229.
[2]- المقرّي، نفح الطيب، 483/4.
[3]- ينظر، الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص 229.
[4]- المقرّي، نفح الطيّب، 483/4-484.

وأخرجَ أهلُهَا منهَــا جميعًــا فصارُوا حيثُ شَاءَ بهم مصيرُ

وكانت دَارُ إيمـــانٍ وعِلـمٍ مَعَالِمُهَا التي طُمِسَت تنـــيرُ

فَعادت دَار كُفرٍ مُصطفـــاةٌ قد اضطربت بأهليها الأمـورُ

مَسَاجدُهَا كنائسُ، أيُّ قلب على هـــذا يُقرُّ ولا يَطيـــرُ

فيا أَسَفَاهُ يا أسَفَاهُ حُزنًـــا يُكرَّرُ مَا تكـــرَّرتِ الدُّهـورُ

ويذهب إحسان عَبَّاس لاستنتاج ما جاء في القصيدة إذ يقول: "تلك هي القصيدة، وهي في جملتها سهلة سائغَة بارئة من التكلُّفِ والافتعال، وتعتمد البساطة والمراوحة بين الإثارة والتَّفجُّع والسّرد القصصي...، وقد خَلَت من زخارف الصُّور حتى كأنّها في بعض أجزائِهَا قطعةٌ نَثرّيةٌ بسيطةٌ وكأنّها لالتزامها الواقع أحيانًا "فقرة" تاريخية لا قصيدة".[1]

وفي الأخير يكشف لنا أحد الباحثين أنّ "الشّاعر من طليطلة إذن، شهِدَ وقائِعَ الأحداثِ الأولى على الأقل، وفارقها قبل التّسليم النّهائي...، يتحدّث عن الأخبار الواردة على أهل طليطلة وعن يأسِهم، وطول انتظارهم للنَّجدات".[2]

من خلال ما سلف نرى أنّ الكارثة التي حَلَّت بطليطلة أثَّرَت في نُفوس الشعراء، فجَعَلتهُم يُنشِدُونها في قصائدهم بأبرعِ الكلمات المحزنَة.

2- رثاء مدينة بلنسيّة:

تعتبر مدينة بلنسيّة "أكبر مدن شرق الأندلس، على البحر الأبيض المتوسّط، وأعظم مرافئ الأندلس الإسلامي، وكانت كما يصفها الحجاري المؤرخ في كتابه "المسهب" مطيب الأندلس، ومطمع الأعين والأنفس، خَصَّها الله بأحسنِ مكان وحفَّها بالأنهار والجنان".[3]

[1]- إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 149.
[2]- الطّاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسيّة، ص 233.
[3]- المرجع نفسه، ص 250.

فمن مراثي المدن الأندلسية أيضًا ما نجده عند الشّعراء في رثاء مدينة بلنسيّة المذكورة، لما حلَّ بها هي الثانية، وهي من أجملِ المُدن وأرقِّهَا وأرقاها، ومنها عددٌ من الشعراء المرموقين أمثال ابن خفاجة وغيره كثيرين.[1]

وكان "التاريخ بين سقوط طليطلة في يد ألفونسُوا، وبلنسيّة في يد السَّيدلا يتجاوز تسعة أعوام".[2]

هكذا "وبدأت حرب بلنسيّة في أوائل سنة 1233م (أواخر سنة 631هـ) خرجت جماعات من الجيش الأرجوني وتفرَّقت في أراضي إقليم بَلَنسيَّة الشّماليَّة، وبدأت بالاستيلاء على بلده آرش، ثم استولت على بلده مُورلة وهي أقصى بلاد بلنسيّة الشَّماليَّة".[3]

زيادة على ذلك "لم تكن نكبة بلنسيّة أخفُّ وطأةً مما حلّ بمدن الأندلس الأخرى، لكنّها قد تمّلت بدخول قائد اسباني هو السّيد القنبطور، بعد حصار طويل استمرّ حوالي عشرين شهرًا لآخر رمضان 485- منسلخُ جُمادى الأولى سنة 487هـ".[4]

ويذهب كراتشوفسكي إلى أنّ "كثيراً ما يذكر شعراء شرقي الأندلس، في أشعارهم، اسم "السيّد" المشهور. وقد وصفت مأساة بلنسيّة، التي حاصرها السيّد عام 1094، بأسلوب بليغ في مرثية الوقشي...، الذي يهمُّ مصير مُؤلّفَاتِه مُؤَرخي أدب ذلك العصر".[5]

ورغم هذا المصاب الذي حلَّ ببلنسيّة إلاّ أنّ "ما بين أيدينا من أشعار لا يمثّلُ إلاّ نُزُرًا يسيراً- بل أقلّ من اليُسر- وهي ظاهرة عامّة في هذا الموضوع المقترض أن تجود قرائح الشّعراء في مثل هذا الموضوع الوجداني الذّووي لفَداحَة النَّكبَة وجَللها".[6]

---

[1] - ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 520.

[2] - الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 250.

[3] - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة،ص 439.

[4] - البيان المغرب 32/4-39 نقلا عن منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص 316.

[5] - كراتشوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي، ص 125.

[6] - منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي، ص 317.

وتمضي ثماني سنوات عِجافٍ على استيلاء القنبطور على بَلَنسيَّة حيث تخضَعُ فيها المدينة للنُّفوذ القَشتَالي، حتّى يقيضَ الله لها جيش المرابطين، بقيادة أبي محمد عبد الله بن مزدلي...، فتتعرَّضُ المدينة لنكبة ثانيّة وخرابٍ جديد إذ يأبى السّيد القنبطور مَغادرتها.[1]

وفي ذلك يقول مصطفى الشكعة "لقد رثى الشعراء بَلَنسيَّةَ مرَّتين كما لو كانت إنسانًا مرموقًا مات مرّتين".[2]

فمن جهة "لقد عانى أهل بلَنسيَّة من أهوال الاحتلال ما لم يُعانِه أحَدٌ قبلهم، ذُلاّ وجُوعًا واسترقاقًا، ومعَ ذلك فإنّ سقوط بلنسيّة لم يكن لهُ من الصّدى بين الشعراء ما كان لسقوط طليطلة".[3]

ومن جهة أخرى "حين تمّ للفرنجة إخضاعها والاستيلاء عليها سنة 488هـ وقتلوا أهلها، وأحرقوا دُورها وعاثوا فيها الفساد، وشوّهوا نظرتها، بكاها شاعرُها وابنها ابن خفاجة".[4]

وفيها يقول ابن خفاجـــــة:[5]

عَاثَت بساحَتِك الظّبـا يا دارُ ... ومحَا مَحاسنكِ البَلى والنَّـــارُ

فإذا تردّد في جنابـــك ناظـرٌ ... طال اعتبارٌ فيك واستعبَـارُ

أرضٌ تقاذفت الحُروب بأهلهـا ... وتَمخَّضَت بخرابها الأقـــدارُ

كتبت يدُ الحدثانِ في عَرَصاتها ... لا أنت أنت ولا الدّيارُ ديَّارُ

من خلال هذا العرض نرى أنّ هذه القصيدة "هي بالوصف ألصق منها بالرّثاء، ويبدوا صاحبها مُسرفًا في الحيادِ والموضوعيّة لا تنضَحُ بعَاطفةٍ ولا تَنِمُّ عن تأثُّر".[6]

---

[1]- ينظر، المرجع السّابق ، ص 318.
[2]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 521.
[3]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسيّة، ص 251.
[4]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 521.
[5]- المقرّي، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب، 455/4.
[6]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسيّة، ص 251.

يبدوا لنا أنّ "ابن خفاجة المترف حسًّا، الأنيق شعرًا...، لم يُطق أن يرى جَنَّتَهُ بلَنسيَّة تخرُب وتنقلب إلى جحيم وخراب فكانت هذه النَّفثَة السَّاحرَة التي تُعطي عبرةً وتذرفُ عَبرةً".[1]

وإنّه لأمر "عجيب أن يكون ذلك رثاء ابن خفاجة لبَلَنسيَّة مَوطنه، وهو الذي وَهَبَ مغاني الأندلس شعرهُ، ووقف على تصويرها فنَّهُ، وعبَّ من لذاذتها حياتهُ، وتعلّق بها أرضًا وماءً وسماءً".[2]

ويرى إحسان عبّاس أنّ "قصيدة ابن خفاجة كانت أكثر أبياتًا ولم يبقَ إلا هذه الأربعة، ذلك أنّ بلنسيّة كانت جزءً من معاهد الشاعر وعهوده وأمّ وطنه شُقرً فلابد أن يكون ضياع بلنسية قد حزَّ في نفسه".[3]

نستخلص مما سبق أنّ محنة بلنسيّة وجدت شاعرها ابن خفاجة الذي عبّر عن حزنه وتفجّعه عليها أصدق تعبير.

وقد روّعت الأندلس لسُقوط بَلنسيّة في أيدي النّصارى، كما روّعت من قبل بسقوط طليطلة، وتتابع صريخ الأندلس على يوسف بن تاشفين، ورسائل أعيانها، تصف ما أصاب بلنسيّة وشرق الأندلس من الدّمار وتقطيع الأوصال.[4]

وقد ذكر رجب البيّومي في كتابه الأدب الأندلسي أنّ هناك ظاهرة هامّة في مراثي الأندلس تتمثّل في أنّ أكثر قائليها غير معروفين لنا الآن، وهذا ما رأيناه في محنة طليطلة ونراه الآن في محنة بَلَنسيَّة، إذ كانوا نفَرًا ممن هَزَّتهُم المحَنَةُ فأرسلوا عَبَراتهم المنظومَة ورواها الأدباء عنهم لرَوعَتها دونَ أن يبوحوا عن قائليها.[5] وفيما يلي سنعرض من هذه القصائد.

---

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 522.

[2]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسيّة، ص 251.

[3]- إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، ص 150.

[4]- ينظر، عبد الله عنّان، دولة الإسلام، 246/2.

[5]- ينظر، محمد رجب البيومي، الأدب الأندلسي تأثير وتأثر، ص 226.

وردت القصيدة في نفح الطّيب، إذ ما زال أهل الأندلس بعد ظهور النّصارى يستنهضون عزائم الملوك والسُّوقَة لأَخذ الثَّأر، بالنَّظم والنّثار...، فمن القصائد الموجَّهَة في ذلك قول بعضهم لما أخذت بلنسيّة يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا ابن عبد الواحد بن أبي حفص:[1]

نَادَتكَأندلسُ فَلبِّ ندَاءهَـــا ... واجْعَل طَواغيثَ الصَّليب فدائَهَا

صَرَخَت بدَعوَتك العليَّةُ فاحبُهَا ... من عاطفتك ما يقي حَوباءَهـــا

واشدُد بحبلك جَردَ خيلك أزرَها ... تردّد على أعقابهـا أرزاءهـــــا

هي دارُكَ القُصوى أوَت لإيـَّالَة ... ضَمنَت لها مع نَصرها إيواءهـــا

وبها عبيدك لا بقاء لهم ســوى ... سُبُلُ الضَّراعةِ يَسلُكون سواءَهـا

خلعت قلوبهم هُناك عزاءَهَـــا ... لما رَأت أبصَارهم ما ساءَهـــــا

القصيدة طويلة لشاعر مجهول وهي تتمثل في الاستنجاد والاستصراخ وطلب الغَوث من أمير إفريقية بن أبي حفص ومن القصائد أيضا ما قاله ابن الآبار القُضاعي:[2]

أدرك بخيلك خَيلَ الله أَندلُسَـــــــا ... إنَّ السَّبيلَ إلى مَنجاتها دَرسَـــــــا

وَهَبَ لها من عزيز النَّصر ما التمَسَت ... فلم يزل منك عزُّ النّصر مُلتَمسَـــا

وحاشَ ممّا تُعانيه حُشَاشَتُهـــــــــا ... فطالما ذاقَت البَلوى صباح مسَـــا

يا للجَزيرة أضْحى أهلُها جـُـــــزرًا ... للحَادثَات وأمسى جدُّها تَعِسَـــا

في كل شارقةٍ إلمامُ بائقَـــــــــةٍ ... يعودُ مأتمُها عند العدا عُــــــــرسا

وكلُّ غاربةٍ إجحَافُ نائبـَــــــةٍ ... تَثني الأمانَ حذارًا والسُّرورَ أسَــــى

تَقاسَم الرّوم لا نالَت مقَاسمهُـــم ... إلاّ عَقَائلها المحجوبة الأنسَـــــــا

وفي بَلنسيَّة منها وقُرطـــــــبَة ... ما يَنسفُ النَّفس أو ما يَنزفُالنَّفسَـا

مَدائنُ حَلَّها الإشراك مبتســـمًا ... جـذلان، وارتحل الإيمان مُبتئسـَــــا

---

[1]- ينظر، المقرّي، نفح الطّيب، 479/4.

[2]- المقرّي، نفح الطيب، 457/4.

والقصيدة طويلة كأنّ ابن الآبار القُضَاعي "يكتبُ التاريخ آنذاك فإن المدينة سَقطت قبل أن يُدركَها أيٌّ من جيوش المسلمين".[1]

إضافة إلى ذلك "إنّ ابن الآبار يقصد إلى هدفه في قصيدته العصماء الفريدة قَصدًا مُباشرًا دون مُقدِّمات ودون استهلال بالمديح...، إنّه يستصرخ الأمير الإفريقي ويستنجد به بصوتٍ مُرتفِعٍ مسموعٍ، وإيقاع نُحسُّ بصدُورِهِ من قلبِهِ".[2]

ويقول عنّان "وكان لهذه القصيدة المبكيّة التي ما زالت تحتفظ حتى يومنا برنينها المحزن، والتي كانت كأنّها نفثة الأندلس الجريح أبلغ الأثر في نفس الأمير أبي زكريا الحفصي".[3]

فكان الشاعر ابن الآبار القضاعي من خلال استنجاده بزكريا الحفصي يقول "أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدّين الحنيف فقد تَعسَ حَظُّها وأصبح أهلُها جُزُرا لسيوف النّصارى، وإنَّ ما حَدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبَلنسيَّة لما يُروّع النُّفوسَ ويخنق الأنفاسَ، إذ أصبحَت المساجدُ كنائسَ وغدا الأذان والنّداءُ للصَّلاة أجراسًا لنواقيس النّصارى".[4]

وقد أُعجب أبا زكريا بالقصيدة كما يقول شوقي ضيف "وأثارت القصيدة أبا زكريا وملأت قلبهُ حفيظةً وحميّةً وموحدةً فأمر...، بإعداد أسطول محمّل بالمؤن والذّخائر، وأرسل به مع ابن الآبار".[5]

وكل ما يمكن قوله عن مدينة بلنسيّة التي مرّت على أصعب المراحل وأبلغ الأسى والحزن "قد استحوذت على النّصيب الأوفى من استنفار الشعر للمسلمين بصددها والدّفاع عنها والبكاء عليها، فإنّ عددا من شعراء الأندلس قالوا في رثائها دُرَرَ القصائد وغُرَرَ الأشعار".[6]

---

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 523.

[2]- المرجعنفسه 523-524.

[3]- عبد الله عنّان، دولة الإسلام، ج3 448.

[4]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدّول والإمارات بالأندلس، ص 388.

[5]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[6]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 529.

وفي الختام نستنتج أنّ المحنة التي مرّت عليها مدينتي طُليطلة وبَلنسية جَعَلَت شُعراءها وأبناءها يثورون عليها، إذ بكوها في قصائدهم، كما فعل ابن العسّال وغيره في رثاء طليطلة، مازجين بين الوصف والرّثاء كما فعل ابن خفاجة في محنة بَلَنسيَّة ويستصرخون أحيانًا طالبين العون والمساعَدة من إخوانهم المسلمين.

المبحث الثالث: رثاء الممالك الأندلسية

أ- رثاء مملكة بني عبّاد:

فمن أشهرهم بنو عبّاد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد* بن عبّاد الشهير بالذّكر بالمغرب والمشرق.[1]

ففي هذا الصّدد "كانت مملكة اشبيلية أو غربي الأندلس، من حيث الرُّقعة الإقليمية والزَّعَامَة السياسية...، أهم دول الطوائف وأعظمها شأنا، وفضلا عن هذا التفوّق الإقليمي والسّياسي، فقد سطعت مملكة اشبيلية بين دول الطّوائف زهاء نصف قرن...، وكان للأدب والشعر بها دولة زاهرة".[2]

وذلك لأن "الأدب والشعر من محاسن الأسرة العبّادية ومآثرها العريقة، فقد نبغَ مُعظَم رجالاتها في النّثر والنّظم، ولم تكن براعة المعتضد في الشعر إلا قبسًا من تراث أسرته؛ ولقد بلغَ ولده المعتمد، فيما بعد في عالم الشعر أسمى مراتبه".[3]

وبعد وفاة المعتضد المذكور سالفا تولّى الحكم ابنه المعتمد وكان شاعرًا أديبًا، جمع حوله فُحول الشعراء وخيرة الأدباء ويكفي أن نذكر الشاعر المبدع ابن زيدون وكذلك ابن عبدون وابن عمّار وغيرهم كثير.[4]

ولقد ارتبط هذا الفن الجَليل برثاء النَّفس، أو الرّثاء الذَّاتي وهو ما أوصَى الشعراء بكتابَته على قبورهم، أو ما قالوه عند دُنوّ آجالهم.[5]

---

[1]- ينظر، المقرّي، نفح الطّيب، من غصن الأندلس الرّطيب، 438/1.

[2]- محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ص 31.

[3]- المرجع نفسه، ص 56.

[4]- ينظر، محمد بن عبد الرحمن البشر، مآسي الأندلس، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرّياض، 2008 8 0 177.

[5]- ينظر، العربي سالم الشريف، دراسات في الأدب الأندلسي، ص 70.

وقد "كان المعتمد أوَّل من رَثى نَفسه، وهو لم يَصنَع هذا الرّثاء على طريقة من يَئسُوا من حياتهم لمرضٍ أو عُضال أو أملٍ ضائعٍ مثلما صَنَعَ ابن شُهيد وغيرُه، وإنّما كان يرثي ملكهُ ويبكي دولته".[1]

غير أنّ المعتمد لم يزل طول حياته أبرز الشخصيَّات الأدبيَّة في عَصرهِ وأشعاره تنقسم إلى قسمين: ما قاله أيّام ملِكهِ وإقبال الدّهر عليه، وما قالهُ في منفاه حين اجتمعت عليه الهموم وعبست له الأيّام.[2]

ونتيجة لغدر الزّمن وفقدان الأحبّة والجاه "أذكت المحنة شاعريّة المعتمد، وكان القريض عندئذٍ عزاءهُ وغِذاءَهُ الرّوحي، فصدرت عنه في معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسّية، وكُلُّها تَلَهُّفٌ على سابقِ مجده، وبكاءٌ على ماضيه، ورثاءٌ لمحنته".[3]

ولما نُقل من بلاده إلى المنفى، وحُمّل في السّفينة، بقيَ أسِفًا تتصعَّدُ زَفَرَاتُهُ حيث تذكّر منازِلَهُ، وَتَصوَّر بهجتها فراقتهُ، وتخيّل استيحاش أوطانهِ، فقال:[4]

بَكى المباركُ في إثر ابـــن عبَّاد بكى على إثر غزلان وآســــادِ
بكت ثُريّاهُ لا غُمّت كواكِبَهَــا بمثل نوْءِ الثُريَّا الرَّائحالغــــادي
بكى الوحيد، بكى الزَّاهي وقبّتهُ والنَّهرُ والتَّاجُ كلٌّ ذُلّهُ بـــــادٍ
ماءُ السَّماءِ على أبنـــاءِهِ دُررٌ يا لجَّةَ البحر دُومي ذاتَ إسعاد

وجاءَ من أخبار المعتمد "في منفاه بصحراء أغمَات كَتبَ المعتمد آخر قصَائده التي لم تكُن مرثيَّات على الحقيقة، وإنّما أغنيات يائسَة للسَّجين الذي كان يملك كلّ شيء، وهي قصائد ربّما تعتبر

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 533.

[2]- ينظر، آنخلجنثالثبالانثيا تاريخ الفكر الأندلسي، ص 124.

[3]- محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام في الأندلس، 359/2.

[4]- ينظر، الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق، د. حسين يوسف خريوش ، مكتبة المنار، ج1 ط1 .13 1989 9 9 93. وانظر أيضا، نفح الطيب للمقرّي 274/4.

أكثر قصائد الشِّعر الأندلسي صراحةً وصدقًا، إنّهُ هو نَفسهُ الذي يَكتُب عن مآسيه وسجنه الخاص ويكتب شاهدَ قبرِه". [1]

وقد ذكر ابن خاقان أيضا في كتابه قلائد العقيان وممّا ورد أيضا في نفح الطّيب أنّ الحصن الزّاهر من أجمل المواضع لدى المعتمد وأبهاها، وأحبّها إليه...، فلما امتد الزّمان إليه بعدوانه، وسدّ عليه أبواب سُلوانه، لم يحن إلا إليه، ولم يتمنى الحلول إلا لديه، فقال: [2]

غَــريبٌبأرض المغرَبين أسيــــرٌ	سيبكي عليه منبَرٌ وسريـــــــرُ
وتندِبُهُ البيضُ الصّوارم والقَنـَـــا	ويَنهَـــلُدمعٌ بينهُنَّ غَزيــــــرُ
مضى زَمنٌ والملك مستأنسٌ بــه	وأصبَحَ منه اليوم وهو نفـــــورُ
برأي من الدَّهر المظلّل فاســـد	مـــتى صَلحَت للصَّالحين دهـــورُ
أذلّبني مَاء السَّماءَ زَمانهـــــمُ	وذلُّبني ماء السَّمـــاء كَبيـــــرُ
فيا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلــةً	أمامي وخَلفي رَوضةٌوغديـــــــرُ
بمنبَتَة الزّيتون مورثَة العُلـــــــى	تُغـَــــني حمام أو تَرنُّ طيـــــورُ
ويلحضُنا الزّاهي وسَعدُ سُعوده	غَيورينَ والصبُّ المحبُّ غَيـــــــورُ
تراهُ عَسيرا لا يَسيرا مَنـَــــــالهُ	ألا كلُّ ما شاء الإلهُ يسيـــــــــرُ

ومن الشعراء المخلصين لشخص المعتمد وأشهرهُم ابن اللُّبَانة، والذي كان له أوفر الحظّ والنّصيب من غرض الرّثاء.

قال عند خلع المعتمد: [3]

أستودعُ الله أرضًا عندمَا وَضُعت	بشائرُالصُّبحفيها بُدّلَت حَلَكاً
كان المؤيّد بستانًا بساحتهـــــا	يجني النَّعيم وفي حافاتها فلكًــــا
في أمره لملوك الدَّهر مُعتَبـَــــرٌ	فَليسَ يغترُّ ذو ملك بما مَلكَــا

[1]– ماريّا خيسوس، الأدب الأندلسي، ص 112.

[2]– ينظر،ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 94/1-95 ونفح الطيّب للمقرّي، 275/4.

[3]– ابن اللّبانة الدّاني، الديوان، تحقيق د. محمد مجيد السعيد، دار الرّاية، ط2، عمان، 2008 0 8 107-108.

نبكيه من جبل هُدَّت قواعـــده فكلُّ من كان في بَطحَائه هَلكَا

ما سُدَّ مَوضعُه، الرزقُ سدَّ بـــه طُوبى لمن كانَ يدري أيّةَ سَلكَا

ويذهب أحد الدّارسين إلى أنّه "لم يكن سُقوط اشبيلية، وسقوط المعتَمَد وآله أسرى في أيدي الضَّافرين خاتمة المحنة، بل كان بداية محنَة أفظَع، وأبلغَ إيلامًا للنَّفس، هي محنَة الاعتقال والأغلال والذل والمنفى المروع".[1]

وفي أوّل عيد له بأغمات أسف وتحسّر لحاله وحال أهله فقال:[2]

فيمَا مَضى كُنتَ بالأَعيادِ مَسرورا	فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسوراً
تَرى بَناتكَ في الأَطمارِ جائعَةً	يَغزلنَ للناسِ ما يَملكنَ قَطميراً
بَرَزنَ نَحوَكَ لِلتَسليمِ خاشِعَـــةً	أَبصارُهُنَّ حَسيراتٍ مَكاســـيراً

و في الوقت نفسه كان لمأساة بني عبّاد الأثرُ البالغُ في تَطوّر الشّعر في الأَندلُس؛ فقد نَظَم أكَابرُ شعراء العصر في رثاء دولتهم و التوجُّع على أيَّامهم ، طَائفةٌ من القصائد المؤثّرة التي ما زالت إلى اليَوم تحتفظ بكل روعتها و جمالها الفنّي و كان أغزرَهُم في ذلك مادّةً أبو بكر بن اللّبانَة شَاعرُ المعتمَد الذي بقيّ على صلاته و وفائه للمعتمَد [3].

و قال يندب المعتمَد حينما زارهُ في أغمَات : [4]

لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِيقَاتٌ وَلِلْمُنَى مِنْ مَنائِيهِنَّ غَايَـــــاتُ

والدَّهر في صَبغَة الحرباء مغمَّسُ ألوان حالاته فيها استـــــــحالاتُ

ونحن من لَعب الشّطرنج في يده وربّما قمرت بالبَيْدَق الشَّـــــــاةُ

انفض يديك من الدُّنيا وسَاكنها فالأرضُ قد أقفَرَت والنَّاسُ قد مَاتُوا

---

[1]- محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام في الأندلس، 356/2.

[2]- الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1 96.

[3]-ينظر محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، 360/2

[4]-ابن اللّبانة ،الديوان ، ص 636 37

وقل لعالمها السُّفلي قد كَتمَــت سريرة العا لم العلوي أغمَـــــاتُ

طوت مظلتها لا بل مَذَلّتُهَــــا من لم تزل فوقَهُ للعزّ رايَــــــاتُ

ومن الممكن لهذا الشاعر الملك "أن يتألمّ لتجيش عاطفته فقد حرّكها مقتل أولادِه، وزادهَا استثارة سُقوطه عن العَرش وسَوقه مع أهله ذليلا من قَصر اشبيلية إلى سجن أغمَات، فتبدَّلَت الحياة من النّعيم بؤسًا، ومن الهناء شقاءً، فَعاش في غُربته محرومًا من كلّ لذّةٍ تعوَّد أن يتمتَّع بها".[1]

وكان هذا الأسير يقول "في منفاه في أغمات أصدق أشعارِه عاطفة، وأبلغها في النّفس أثرًا بعثت مَعَانيها في نفسه الآلام التي عاناها خلال النّوات الأخيرة من عمره".[2]

فضلا عن ذلك "إنّ المرحلة الأخيرة من حياة المعتمد، وهي مرحلة مؤسيّة تنفطر لها القلوب الكريمة، تنتمي إلى الأدب أكثر من انتماءها إلى التّاريخ لما تحفل به من الآثار الشّعريّة الرّائعة التي نظمها المعتمد عن محنته وألمه في المنفى.[3]

ولا تزال كبدُ المعتمد هذا تتوقّد بالزّفرات، وخلدَهُ يتردّد بين النّكبات والعثرات. ونفسه تتقسّمُ بالأشجان والحسَرات، إلى أن شَقَّته منيّتهُ، وجاءته بها أمنيّته، وحان رحيلُهُ، فدُفِنَ بأغمات، وأريحَ من تلك الأزمات، وصَارَ أمرُهُ عبرَةً في عصرِه، وكان من الشّخصيات التي خلّدها التاريخ.[4]

وقبل أن تؤذّنَ المنيّة بالرّحيل كان "قد نظَمَ المعتمد أبياتًا أوصى بأن تكتب على قبره، وشبّه نفسه فيها بجبل يتهادى فوق أعوادٍ، ناظرًا في ذلك إلى معنى ضمّنهُ المتنبّي أحد أبياته وقد ترجمها غرسية غومس إلى شعر إسباني".[5]

وممّا قاله المعتمد من الشعر عند موتِهِ:[6]

قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرّائحُ الغـادي حقًّا ظفِرَت بأشلاء ابــن عبَّـــادِ

---

[1]- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص 151.

[2]- آنخلجنثالثبالانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 128.

[3]-محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام في الأندلس، 355/2.

[4]- ينظر، الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ج1 6 106.

[5]- آنخلجنثالثبالانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 131.

[6]- المرّاكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح د. صلاح الدين الهوّاري، المكتبة العصريّة، ط1، بيروت، 2006 6 0 120.

بالحِلمِ بالعِلم بالنُّعمى إذا اتَّصَلَت   بالخصب إن أجدبُوا بالرِّيّ للصّادي
بالطّاعن الضّارب الرّامي إذا اقتتلوا   بالموتِ أحمر بالضّر غامَة العـــادي
بالدَّهرِ في نقمٍ بالبحرِ في نِعَـــمٍ   بالبَدر في ظُلمٍ بالصَّدرِ في النّـادي
نعم هو الحقُّ حاباني بـــهِ قَدَرٌ   من السَّمَـــاء فَوافاني لميعـــادِ
ولم أكُن قَبل ذاك النَّعشِ أعلَمُـــهُ   أنَّ الجبالَ تَهادَى فَوقَ أعـــوادِ

ويعلّق الباحث الإسباني بالانتيا على أشعار المعتمد وآثاره الباقيّة قائلاً "وكانت محنته العظيمة تُثيرُ شُجُون ذوي الحس المرهف من النّاس، أمّا عَامَّتُهم فكانوا مُولّعين بأخباره ومُغامراته وفروسيِّته؛حتّى بَدْوَ العرب كانوا يذكُرُونه بإعجابٍ عظيم".[1]

وهكذا أنهى المعتمد بن عبّاد حياته الباهرة، في غمرِ المحنةِ، وظلماتِ العَدم، وبَقيَّت ذكرَاهُ طويلا حيَّة في المغرب والأندلس، ولبثت محنتُه وخاتمتهُ مَضرِب الأمثال في تَقلُّب الحدود وعبَر الدَّهر.[2]

ويرى باحث آخر أنّ "قصائد المعتمد في رثاء دولته، وبكاء واقعه، كثيرة وفريدة، ولم يحدث قبله أن فاضت ينابيع الشَّعر في أعماق أمير فصوّر لنا مأساته وأحزانه وآلامه وتأسّيه وصاغ التّجارب موحية مثيرة من واقعه ومآسيه، كما صنع المعتمد في نبرة صادقة ومعاناة حقيقيّة وإيقاع حزين".[3]

ومن شعراء المعتمد أيضًا، أبو بكر بحر بن عبد الصمد، فبعد أيّام من وفاة المعتمد، قال أبو بكر بن عبد الصّمد بعد أن طافَ بقبره والتزمه:[4]

ملك الملوك أسامعٌ فأنـــــادي   أم قد عَدَتك عن السّماع عواد؟
لمّا خلت منك القصُورُ فلم تكـــن   فيها كما قد كنت في الأعيـادِ
قبّلت هذا الثّرى لك خَاضـــعًا   وتخذتُ قَبرك مَوضعَ الإنشـــادِ
قد كنتُ أحسِبُ أن تُبدّد أدمُعـــي   نيرانَ حُزنٍ أُضرِمَت بفُـــؤادي

---

[1]- آنخلجنثالثبالانتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 132.
[2]- ينظر، محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام في الأندلس، 362/2.
[3]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسيّة، ص 240-241.
[4]- الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، ج1 106-107، وانظر النّفح للمقرّي، 224/4.

وقد كانت القصيدة طويلة نظَمَها الشّاعر مُعبّراً عن حزنه على الملك المعتمد الذي كان يصارع الموت في غربته، فكانت هذه نهاية كلّ عيشٍ، وغاية كلّ ملكٍ وجيشٍ، والأيّامُ لا تدَعُ حيًّا، ولا تألُوا كلّ نشرٍ طيًّا، تطرقُ رزاياها كلّ سمعٍ، وتُفرّق مناياها كلّ جمعٍ.[1]

من خلال ما رأيناه من الأشعار والمراثي نستنتج أن دولة بني عبّاد قد ذهبت في مهبّ الريح، كما زالت بزوال ملكها المعتمد والذي كان بعينه شاعراً رثى مملكته.

ومن مراثي ابن اللّبانة أبي بكر الدّاني هذا في دولة بني عبّاد والمعتمد قصيدة داليّة جيّدة يستهلّها بهذه الأبيات الآتية.[2]

حيث أنّ "هذا الهبوط من السُّمُو إلى الحضيض، من سدّة الملك إلى وهدة السّجن، أثار كوامن الشعر في نفس شاعر المعتمد...، ابن اللّبانة، فبكى دولة العبابدة في شعر صادق طافح بالأسى، عدّد فيه مآثرهم ...،في عبارة رقيقة وتصوير دقيق "[3]

يقول ابن اللبانة: [4]

تَبكي السَّمَاءُ بمزنٍ رائحٍ غـادي ... على البَهاليل من أبناء عَبّـــاد
على الجبالِ التي هُدَّت قَواعدُها ... وكانت الأرض منهم ذاتَ أوتاد
والرّابيات عليها اليانــعات دَوَت ... أنوارُها فَغَدَت في خفض أوهـادِ
عرّيسةٌ دخَلتها النَّائبات علـــى ... أساوِدٍ لهمو فيها وآســــــادِ
وكعبةٌ كانت الآمال تعمُرُهـــــا ... فاليوم لا عاكفٌ فيها ولا بـادِ
تلك الرّماح رماحُ الخطِّ تقِفُهـــا ... خطبَ الزّمان ثِقافًا غير معتـادِ
والبيضُ الظُّبى فلّت مـضَاربُهـــا ... أيدي الرَّدى وتَنَثْها دونَ إغماد
لمّا دنا الوقت لم تُخلف لهُ عُـــدّةً ... وكلُّ شيءٍ لميقات وميعـــــاد

---

[1]- ينظر، الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 244.

[2]- ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 535.

[3]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 241-242.

[4]-ابن اللبانة الداني ،الديوان ، ص 56-57 ، و انظر ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ج1 ، ص: 90

كم من دراريّ سعدٍ قد هوت ووهت هناك من دَرَرٍ للمجد أفـــــراد

نورٌ ونورٌ، فهذا بعد نعـــــــــمته ذَوَى، وذاك خبا من بعد إيقاد

والقصيدة طويلة تتألف من 57 بيتًا شعريًّا يحكي فيها الشاعر عن الملك الرّاحل وزوال مملكته اشبيلية حيث "أفاض ابن اللُّبانة في أشعارِهِ بتصوير تلك الفاجعة، فجاءت داليّته الشّهيرة عاكسة نبل عواطفِهِ...، وهو يرى المعتمد وأهلَهُ أسرى يركبون السّفينة في صمتٍ وكأنَّها القَبرُ والنَّاسُ حولَهُ بقلوبٍ قرحى وأفئدةٍ مكلومةٍ حتّى الطبيعة شاركتهم الحسرةً".[1]

كما يبدأ الشاعر ابن اللّبانة قصيدته التي رأيناها "بالحديث عن أفضال بني عبّاد، ومكارم أخلاقهم، وسَجَايَاهم في الكرم التي طُبِعُوا عليها. والمنزلة السَّامقة التي أحرزوها فيصفهم بالجبال والمُزن واليانعات التي ذوت أنوارُهَا".[2]

ويعلّقُ شوقي ضيف على القصيدة قائلا "إنّ السّماء تبكي بسحُبِها على السَّادة من بنى عبّاد الذين كانت الأندلس ترسُو بهم كما ترسُو الأرض بالجبال، وإنّ قصورهم باشبيلية لغابة اقتحمتها الكوارث على أُسُدٍ مُفترسة".[3]

كما يذهب إلى أكثر من ذلك "حين يجعلهم كعبةَ الآمالِ، ويُعزِّي الضّيوفَ والنُّزلاء كما يواسي الفرسان والأبطال الذين تنعّموا في ظلّ العبابدةِ".[4]

يقول ابن اللّبانة أيضًا في القصيدة نفسها:[5]

إن يخلعوا فبنُو العبّاسِ قد خُلعُوا

وقد خلت قبل حمصٍ أرضُ بغداد

---

[1]- سامية جبّاري، الأدب والأخلاق في الأندلس عصر الطوائف والمرابطين، دار قرطبة، الطبعة الأولى، الجزائر، 1429هـ/2009 219-220.

[2]- منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص 310.

[3]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدّول والإمارات بالأندلس، ص 343.

[4]- منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي، ص 310-311.

[5]- ابن اللّبانة الدّاني، الديوان، ص 59.

فهذا البيت الشعري دليل على أنّ أهل المشرق قد عرفوا هذا اللّون من قبل إذ "يُعزّي ابن اللّبانة نفسهُ وأهلَ اشبيلية بأنّ لهم أسوة في خلع آل عبّاد بمن خُلعوا قبلهم من الخلفاء العبّاسيين".[1]

لأنّ أهل المشرق "كانوا أعزَّ سلطانًا وأعظم مُلكًا، فأقفرت منهم بغداد كما أقفرت من هؤلاء اشبيلية".[2]

بيد أنّ الشاعر ابن اللّبانة "لا يطيل الوقوف بهذه المقارنةِ، ولا يتجَاوزُهَا إلى غيرِهَا، وإنّما يخلُص إلى موضوع القصيدة نفسِهِ، فيصوِّرُ مشهد ركوب بني عبّاد السّفن في طريقهم إلى المنفى".[3]

يقول ابن اللّبانة أيضًا:[4]

نَسيتُ إلاّ غُداةَ النَّهر كونُهُــــم ... في المنشآت كأموات بالحـادِ

والنّاس قد ملئوا العبرين واعتبـــروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزبـادِ

حُطّ القناع فلم تُستَر مُخـــــدّرةً ... ومُزقت أوجه تمزيق أبـــــرادِ

تفرّقوا جيزة من بعد مـــا نشأوا ... أهلاً بأهلٍ وأولادٍ بـــــأولادِ

حان الوداعُ فضجّت كلَّ صارخةٍ ... وصارخٍ من مِفداةٍومن فادِ

سارت سفائنهم والنّوحُ يصحبـــــها ... كأنّها ابلٌ يحدو بها الحـــــادي

كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملَت ... تلك القطائعُ من قطعاتِ أكادِ

يقول عبّاس إحسان في شأن هذه القصيدة "وقد تمثِّلُ هذهِ القطعة صورة خارجيّة للمنظر الحزين دون أن تعبّر إلاّ قليلاً عن الحزن الذّاتي لدى ابن اللّبانة، ولكن هذه الطريقة غالبة في طلب الإثارة بتعريض القارئ نفسه لتصوّر موقف الحزن".[5]

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات بالأندلس، ص 343.
[2]- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 242.
[3]- المرجع نفسه، ص 242.
[4]- ابن اللّبانة الدّاني، الديوان، ص 60-61.
[5]- عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطّوائف والمرابطين، ص 153.

وهكذا تمضي المأساة، وتسرف ريشة الشاعر في تصوير شدّةِ تلك الفاجعة المؤلمة، فأنّك تسمع "كلَّ صارخةٍ وصارخٍ من مفداةٍ وفادٍ" كما تغُصُّ الأصوات بالعويل والصّراخ.[1]

ويعتبر "ابن اللّبانة أصدق شاعر رثى دولة في الأندلس، ولم يتوقّف بكاؤهُ لها بزوالها وفقدان الأمل في عودتها، وحاول أن يستخرج من مأساتها العضات والعبر".[2]

ويقول أحد الباحثين بشأن المراثي "والمراثي إنّما جُعلت تسليّة لمن عضّته النّوائب بأنيابها، وفرّقت الحوادث بين نفسه وأحبابها، وتأسيّة لمن سبق إلى هذا المصرع، ونهل من هذا المشرع ووثوقا باللّحاق بالماضي ، وعلما بأنّ حادثة الموت من الدّيون التي لابدّ لها من التّقاضي، وأنّه لا سبيل إلى الخلود والبقاء".[3]

ويمكن القول أنّ "المراثي التي قيلت في زوال دولة بني عبّاد كلُّها كانت موجّهة لشخص المعتمد ولا غرُوّ في ذلك، إذ هو عبرة لتقلّب الدّهر".[4]

وفي مجمل القول كانت هذه خاتمة الملك الملقب بالمعتمد كما كانت نهاية مملكته اشبيلية المعروفة بدولة بني عبّاد

ب- رثاء مملكة بني الأفطس:

جاء في نفح الطيب للمقرّي من أخبار بني الأفطس، أنهّم من مشاهير ملوك الطوائف ومنهم المظفّر صاحب التأليف المسمىّ بالمظفّري في نحو الخمسين مجلداً والمتوكّل منهم قُتلَ على يد جيش يوسف بن تاشفين.[5]

فمن شمال دولة اشبيلية Sevilla قامت مملكة بني الأفطس في بَطليوسBadzoz، وكانوا يسابقون جيرانهم في رعاية العلم حيث بلغت المملكة أوجها على أيّام المظفّر، محمّد بن عبد الله ابن الأفطس

[1]- ينظر، منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي، ص 311.

[2]- الطاهر احمد مكي، دراسات أندلسية، ص 243.

[3]- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النّويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د. يحي الشامي، دار الكتب العلميّة، ج5، بيروت، لبنان، (د.ت) 160-161.

[4]- سامية جبّاري، الأدب والأخلاق في الأندلس عصر الطوائف والمرابطين، ص 220.

[5]- ينظر، المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب 442/1.

وحكم فيها بين 437 و 456 هـ = 1045 – 1063 م وابنه المتوكّل أبو محمد عمر، حكم من 460 إلى 487 هـ = 1094.[1] فقد كان " يجاور مملكة اشبيلية من الشمال، مملكة بطليوس، تفصلها عنها جبال الشّارات الكبرى...، وكانت مملكة بطليوس تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة."[2]

إضافة إلى ذلك" اشتهر اسمهم سادة هذه المملكة الشاسعة حكموها نيّفًا وسبعينَ عامًا، وسَطَعَ بلاطهم أيّام الطّوائف."[3]

يقول راغب السرجاني في كتابه قصة الأندلس " في الثغر الأدنى من بلاد الأندلس تكوّنت مملكة بطليوس، وهي مملكة تمثل بعدًا مهمًا في الصراع بين مماليك الطوائف، نظرا لأهميتها الجغرافية الخاصة."[4]

ولعلّ مابين أيدينا من المعلومات عن إمارة بطليوس أقل مما بين أيدينا عن أي إمارة أخرى من إمارات الطوائف في ذلك العصر. [5]

كما يجب التنبيه على أن " أول من استبد بأمرها مولى الفارسي الأصل يسمى سابور...، وكان رجلا أميًا قام بأمر دولته ابن مسلمة (413/ 1222 – 437/ 1045) مؤسس أسرة بني الأفطس."[6]

ونجد عند الباحث والأديب راغب السرجاني نفس الرأي إذ أن " قصة الدولة تبدأ باحتدام الفتنة في أواخر العهد الحكم المستنصر بالله، حيث كان يحكم المنطقة الغربيَّة لبلاد الأندَلس (البرتغال) فتى يُسمَّى سابور العامري. "[7].

[1]-ينظر، الطاهر أحمد مكّي، دراسات أندلسية، ص 245.

[2]- محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام في الأندلس، 81/2.

[3]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]-راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج1 . : 356-357.

[5]- ينظر، آنخلجنثالثبالانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 146.

[6]-المرجع نفسه، ص: 146.

[7]- راغب السرجاني، قصة الأندلس، ج1 61: 357.

وكان ملك المظفّر صاحب بطليوس المذكور آنفا " من أعلم أهل عصره، وكان شغوفا بالشعر والأدب."[1]

أما إبنه المتوكّل فكان " من أشهر ملوك الطائف وأبقاهم ذكرا وهو لم يشتهر بحروبه وأعماله السياسية، وإنما اشتهر بعلمه وأدبه وشعره وبلاطة الزاهر، الذي كان جامعة أدبية أكثر منه قصرا ملوكيا."[2]

وجاء من أخبار المتوكل في كتاب المغرب في حلى المغرب لابن السعيد أنه "كان في حضرة بطليوس، كالمعتمد بن العباد في حضرة اشبيلية، فكم أحييت الأمال بحضرتهما، وشدَّت الرّحال إلى ساحتهما."[3]

ولم يأتي ذكر دولة المتوكل بن الأفطس بين ملوك الطّوائف بالعلم والثقافة فقط بل كذلك بإنشار العدل والمساواة بين الناس.[4]

وكان للمتوكّل أيضا "قدَمٌ راسخةٌ في صناعة النّظم والنّثر، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامَّة...، واتصَّلَت مملكته إلى أن قتله المرابطُون أصحاب يوسف بن تاشفين، وقَتلُوا ولَدَيْه الفضلُ والعبَّاس صبراً. "[5]

هكذا وقد " دامت أيام المتوكل بن الأفطَس إلى أن تغلّب المرابطون على الأندلس."[6]

ويقول ابن خاقان في قلائد العقبان عن شخص المتوكّل أنّه قد " دحت أيّامه المشرقة، وذَوَت غُصُونُهُ المُورقة، ونُقلَ هو وابناه إلى حيث أمر لهم الدّهر جَنَاهُ، فأمضى عليهم حدُّ الحُسَام حُكمُه، وأنفذ فيهم صور الأَيَام ظُلُمُهُ."[7]

---

[1]- محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام في الأندلس، 87/2.

[2]-المرجع نفسه . "2 . ": 88.

[3]- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1: 364.

[4]-ينظر، راغب السرجاني، قصة الأندلس، ج1: 364.

[5]- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 62.

[6]- راغب السرجاني، قصة الأندلس، ج1: 364.

[7]-الفتح ابن خاقان، قلائد العقبان، ج41 3: 121.

ويطيل ابن خاقان الحديث عنه وعن ولديه وما حلّ بهم " بحيث لم تعطف عليهم إلا جوانح الليل. ولم تقف لديهم إلا بوارح الويل ...، فرُويت الأرض من دمائهم، وتعطلت المنابرُ من أسمائهم...، قد توسّدوا التراب بدلاً من الأرائك."[1]

فضلا عن ذلك "لم تكن بطليوس أحسن من اشبيلية فقد عمد المرابطون إلى خلع ملوك الطوائف بعدما تبين لهم ضعفهم و موالاتهم للعدو قاصدين من وراء ذلك توحيد الدولة الإسلامية تحت قيادة مُرَابطيّة."[2]

وهكذا التاريخ يعلّمنا كيف انتهت محنَة بني الأفطس بانتهاء مأساة المتوكّل على الله واستطاع المرابطون السيطرة على غرب الأندلس، وكان المتوكل بدفع ثمن موالاته للنصارى دون المؤمنين، وتلك زلّة لا يغفر لها التاريخ مع حُسن سيرته وذيوع صيته وعلمه.[3]

وعليه فإن مملكة بطليوس مثلها مثل سابقتها اشبيلية حلّت عليهم المصائب والنوائب في إثر مقتل ملكهم وعقب هذا المُصَاب نظموا قصائد ومرثيات يعبرون فيها عن زوال ملكهم حيث "كانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعيادًا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب، خَلدت فيهم، ولهم قصائد سادت مآثرهم وأبقت على غابر الدّهر حميد ذكرهم."[4]

وتعتبر مملكة "بنو الأفطس، ملوك بطليوس، كذلك من حُماة الشعر والأدب، وكان بلاطهم ولاسيَّما في عهد عميدهم المظفر و ولده المتوكّل، ملاذا لطائفة من أعظم شعراء العصر."[5]

بيد أن هذه المملكة "لم تحظ بعناية الشعراء على نحو ما تقدم معنا في مملكة بني عبّاد باستثناء المرائي التي نظمها شاعرها أبو محمد بن عبدون اليابري (ت 520 ه). وتأتي أشهر قصائده رائيَّتَه المعروفَة باسم البَسامَة."[6]

[1]-الفتح ابن خاقان، قلائد العقبان، ج1) : .121

[2]-سامية جباري، الأدب والأخلاق في الأندلس عصر الطوائف والمرابطين، ص 222.

[3]- ينظر، راغب السرجاني قصة الأندلس، ج1 365.

[4]- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 62.

[5]- محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام، ج2 428.

[6]- منجد مصطفى بهجت الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص: 312.

ويصف المراكشي في المعجب هذه القصيدة بأنها "قصيدته الغَرَّاء، لا بل عَقيلتُه العَذراء، التي أزرت على الشعر، وزادت على السّحر، وفصلت في الألباب فصل الخمر، فجلت عن أن ..سامى، وأنفت من أن تضاهى، فقل لها النظير، وكثر إليها المُسير."[1]

فقد أذكت محنة في الأفطَس، كما أذكت محنة بني عبّاد من قبل فجيعة الشّعر الأندلسي، لذلك نجد ابن عبدون ينظم هذه القصيدة التي تعد من أشهر المراثي الأندلسية وأروعها على الإطلاق.[2]

وجد ذكرها ابن خاقان أنها " اشتملت على كل ملك قتل، وأشارت إلى من غدر منهم وختل، تكبرها المسامع ويعتبرها السَّامعُ."[3]

ويشير أحد المؤرخين أنها " من أمَّهات القصائد ووسائط القلائد، فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدّهر بحوادثه ونكباته."[4]

وبذكر أيضا فاجعة بنو الأفطس كيف " وتب عليهم الزمن فما وجدوا أجنة نفيهم من وثباته، ودبّت عليهم الأيام بصُروفها، وسقتهم المنية بكأس حتوفها."[5]

وينعتها غرسية غومس بأنها "سلسلة طويلة من الأبيات تدور حول معنى   أين الأولى» يعدّد ابن عبدون فيها مصائب التاريخ البشري في أسلوب خال من حرارة الإحساس الصّحيح. وهو لا يرى من وراء هذا السرد إلا إلى إظهار مدى علمه."[6]

يقول ابن عبدون في قصيدته:[7]

الدَّهرُ يَفجَعُبعد العين بالأثر   فما البُكاءُ على الأشباح والصّور.

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظةً   عن نَوْمَة من ناب الليث والظفر.

فالدَّهرُ حربُوا إن أبدى مسالمةً   والبيضُ والسودُ مثل البيض والسُمُر.

---

[1]- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 62.

[2]- ينظر، محمد عبد الله عنّان، دولة الإسلام، ج2) 369.

[3]-الفتح ابن خاقان، قلائد العقبان، ج1 . 123.

[4]- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 5 . 188.

[5]-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[6]- غرسية غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، ص 61-62.

[7]- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 62- 63 وأنظر أيضا: الفتح ابن خاقان في قلائد العقبان، ج1   : 123-124.

ولا هوادة بين الرأس تأخذه يدُ الضّراب وبين الصّارم الذّكر.
فلا تغُرّنَّك من دُنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السّهَر.
ما لليّالي أقال الله عثرتها من اللّيالي وخانتها يدُ الفتر.
في كلّ حين لها في كلّ جارحة مناّ جراحٌ وإن زاغت عن النّظر.
تسُرَ بالشيء لكن كي تغرّ به كالأيم تار إلى الجاني من الزّهر.
كمدولة ولّيت بالنّصر خدمتها لم تبقى منها—وسل ذكراك– من خبر.
هوتبدَارَاوفَلّت غربَ قاتله وكان غضباً على الأملاك ذا أُثُر.
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ولـم تدع لبني يونان من أثَـــر.

ويرى مصطفى الشكعة أن الشاعر ابن عبدون "يسلك نهجا جديدا في بناء قصيدته من حيث استيحاء تجاريب الحياة، واستقراء أحداث التاريخ والإستفادة من دروسه وأخذ الحكمة من غيره"[1] كما يعرض لنا حوادث الدّهر من السابقين، ويظهر لنا نكبة المتقدمين من ذوي التيجان والرّياسة[2] وكان البيت الأول من القصيدة يتصدّر بـ " مطلع تقليدي يشكو فيه الدّهر الفاجع، والدّنيا الخادعة، واللّيالي القلب، فكم من دولة هيأت لها الأيام أسباب النصر والتأييد، ثم كرّت عليها فسلبتها كلّ ما منحت."[3]

والشاعر ابن عبدون يوظف في قصيدته صيغ التفجّع الواحدة تلو الأخرى، ويورد أنات التوجع متتالية، ويتهم الدّهر بالختل، والليالي بالخديعة، والدّنيا بالغرور والناس بالشرور. فأبيضهم كالسّيف على إراقة الدّماء وأسمرهم كالرّمح في إزهاق النفوس. [4]

فالقصيدة كلها إنما هي تنبيه من الشاعر عن غدر الأيام وكيف فعلت بالسَّادة من الملوك الكرام وانقلبت عليهم دون رحمة ولا غفران

[1]–مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: 542.
[2]– ينظر، عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص 137.
[3]– الطّاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 246.
[4]– ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 542.

ويمضي ابن عبدون " وهو يتحدث عن الدّهر وانه دائما يرسل فواجعه على المحسوس وما وراء المحسوس، فقيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحا وصوراً."[1]

كما أن ابن عبدون "يستخدم معاني الحكمة والحذر من الدّهر واللّيالي والناس، وينبه إلى غدرهما وبعدها عن الوفاء ووضع الأحداث التاريخية الهاّمّة في زوايا النسيان."[2]

والشاعر كذلك يقدم لنا العضات والعبر مستعملا في قصيدته الرائعة أساليب النهي والتحذير إذ "يقول إنني لا أحصر في وعظك ونهيك عن الإستنامة إلى الدّهر، وهو قد أنشب فيك نابه وظفره، ويدعو الله أن يقبلنا وينقذنا من عثرات اللّيالي."[3]

كما يذكر في الأبيات (9- 10- 11) أن " دول كثيرة أتاحت الليالي لها الظَفرُ والرفقةُ، ثم عادت فهوت بها من حالتي."[4]

تلك الدول التي كان نجمها ملتصقا في ذرى المجد مثل الأكاسرة وبني ساسان واليونان[5].

يقول ابن عبدون أيضا:[6]

وألحقت أُختها طسمًا، وعاد على ... عاد وجُرهُم منها ناقض المرَر.

وما أقالت ذوي الهيئات من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر.

ومزّقت سبأ في كلّ قاصيَّـــة ... فما التقى رائح منهم بمبتكر

وأنفذت في كليب حكمها ورمت ... مهلهلاً بين سمع الأرض و البصر.

فالشاعر هنا "يستقرئ صفحاته التي قَضَت على قَبائل عَظيمة...، مثل طسم وعاد وجُرهم وسَبَأ... ويذكر أعلام فرسان الجاهلية كُليبًا ومُهَلهلا."[7]

[1]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات بالأندلس، ص 364

[2]– مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 542- 543.

[3]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات بالأندلس، ص 346.

[4]–المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5]– ينظر، مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 544.

[6]– المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 63.

[7]–مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 544.

نرى أن رائية ابن عبدون جمعت كل الوقائع التي مرّت عليها العصور السالفة وذلك بذكر معظم الدول التي كان لها شأن عظيم إلى أن تدَحرجَت من القمّة إلى الهاويّة، وعليه فإنّ " الشاعر يسوقُخمسة وثلاثين بيتا مصدرها أحداث التاريخ ومادتها الحكمة وهدفها العبرة لكي ينتهي من ذلك كلّه إلى غدر الدنيا ببني المظفر. "[1]

فبعد سفره الطويل مع " هذه المقدمة الطويلة يبدا الشاعر حديثه في رثاء بني الأفطس، فيلعن اليوم الذي ذهبوا فيه، ويبكي من بعدهم الأدب والكرم والشجاعة والحدود لا تجد من يحصيها ويَذودُ عنها."[2]

ويرى مصطفى الشَّكعة أن في "هذه المرحلة من مرثيته يعمد إلى طرح القضية الأبدية التي تتمثل في أن الحياة الدّنيا مراحل والإنسان فيها ومنها على سفر."[3]

فالشاعر يبدي لوعته وارتمائه في خضم الحسرة على بني المظفر، الذين يعتبرون من دهاة الحكم والسياسة، وقمة الفصاحة والسّماحة، وسادة الفرسان ورؤوس الحرب والفتح والطّعان.[4]

يقول ابن عبدون:[5]

بني المظفر والأيام لا نزلت مراحل والورى منها على سفر.
سحقا ليومكم يوما ولا حملت بمثله ليلة في غابر العمـــــر
من للأسرة، أو منللأعنَّة أو من للأسنَّة يهديها إلى الثّغر.
من للضحى وعوالي الخط قد عقدت أطراف ألسنها بالغي والحصر.
وطوّعت بالمنايا السّود بيضُهُم فأعجب لذاك وما منها سوى الذّكر.
من للبراعة أو من للبراعة أو من السَّماحة او للنَّفع والضَّرر.
أو دفع كارثة أو ردع آزفة أو قَمع حادثة تَقيا على القَدر.

[1] –المرجع السَّابق ص :545.
[2] – الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ص 247.
[3] – مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 545.
[4] – ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[5] –المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 66- 67

وَيبَ السَّماح وويبَ البَأس لو سَلمَا   وحَسرَة الدّين والدُّنيا على عُمَر.
سَقَت ثَرى الفضل والعبَّاسي هَاميَّة   تعزي إليهم سماحًا لا إلى المطَر
ثلاثة ما رأى السَّعدان مثلهُــــمُ   واخبر ولو عَزَّزافي الحوت بالقَمَر.

فمن خلال هذه الأبيات يقول – ابن عبدون- " سحقا وبعدًا لليوم الذي زالت فيه دولتكم..." ويبكيهم لعرش بَطليوس وخَيْلها العاديَّة وسُيوفها البَاترة."[1]

هكذا ونستطيع أن نقول أن أبيات هذه القصيدة تنمُّ عن علم واسع واطلاع متبكر، ولم يسبقه إلى مثلها من نوعها إلا ابن زيدون، فقد كانت غزارة مادَّتها دافعة بالكثيرين إلى شرحها وأذيَعها "شرح ابن بدرون". [2]

ويرى شوقي ضيف أن " المرتبة تعد من فرائد الشعر الأندلس، بل الشعر العربي بعامَّة، وبدون ريب يعدُّ ابن عبدون من افذاذ الشعراء الأندلسيين."[3]

ويخلُص الشَّكعة إلى النتيجة التالية أنه " لا عجب أن يفتقد الأندلسيون بني عبّاد فيبكيهم الشعر ويرتبهم الشعراء ولا عجب أن يحزن الأندلسيون على بني المظفر فيخلدهم الشعر ويُؤنّبَهُم الشعراء. "[4]

ويذهب واصفًا مملكتَا بني عبَّاد و بني المظفَّر أنهما " دَرَّتين نَفسَيتَين في عَقد ملوك الطوائف، الذي اندثرت حبَّاته...، وكان هؤلاء الملوك أنفُسهم مُعظّمي تلك الجوهرة النَّفيسة."[5]

وفي الأخير "إذا عدنا إلى مراثي الأندلسيين بالدّراسة والتصفح وجدناها تركز على أسباب الهزيمة والمتمثلة في نظرهم في المعاصي والذنوب الكثيرة التي تحجب نصر الله، فتلحق بهم الخراب."[6]

[1]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات بالأندلس، ص 347.
[2]–ينظر، آنخلجنثالث، بالانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 148.
[3]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات بالأندلس، ص 347.
[4]– مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 547.
[5]–المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[6]–سامية جباري، الأدب والأخلاق في الأندلس، ص 224.

الخاتمة

في الختام و بناءا على كل ما تقدم ذكره في هذا البحث توصلت إلى مجموعة من النتائج و الآفاق تتمثل كالآتي:

- ✓ يعتبر العصر الأندلسي أزهى العصور و أفضلها لما شهده من تطور و خاصة الجانب الشعري.
- ✓ كان للطبيعة الأندلسية الأثر البالغ في نفوس الشعراء الذين تغنوا بجمالها، لما فيها من مظاهر الحسن و الجمال.
- ✓ يعد فن الوصف تقليدا الآثار المشارقة، إلا أنَّ الأندلسيّين تَوسَّعوا فيه و جَعَلوه من الفنون الشعرية الموسَّعة.
- ✓ تعتبر الموشحات و الأزجال من أهم مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي.
- ✓ جاءت الموشحات ثورة على نظام القصيدة التقليدية المعمول بها قديما.
- ✓ الأزجال هي وليدة الموشحات.
- ✓ لقد مال الأندلسيون إلى رثاء المدن و الممالك الزَّائلَة، فهذا الفن صدر عن قلب حزين يحمل من العبرات و الحسرات ما تحمله القصائد من معان و كلمات.
- ✓ و في الأخير أرجو من الله تعالى أن يتقبل مني بحثي هذا خالصا لوجهه الكريم و أن أكون قد وفَّيت الأمانة في تقديمه كمرجع لموضوع الأدب الأندلسي.

* و الحمد لله ربّ العالمين و الصّلاة و السلام على أشرف المرسلين .*

قائمة المصادر و المراجع

- أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د .إحسان عباس دار صادر بيروت
- أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ن دار المعارف ، القاهرة 1985 م
- إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية بيروت لبنان 1969م
- إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ،دار الشروق، عمان 1997 م
- اسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ج 6 ، دار العلم للملايين ،بيروت 1979م
- ايميل ناصيف ، اروع ما قيل في الرثاء ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية(د.ت)
- باقر سماكة ، التجديد في الأدب الأندلسي ، مطبعة الايمان ،بغداد1971 م
- بطرس البستاني ،أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، دار نظير عبود ، بيروت (د.ت)
- أبو بكر ابن حجة الحموي ، بلوغ الأمل في فن الزجل ، تحقيق د. رضا محسن القريشي ، منشورات وزارة الثقافة الارشاد القومي، دمشق 1974م
- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج 8 ، الطبعة الثانية ،دار المعارف، مصر (د.ت)
- أبي الحسن علي ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د .إحسان عباس ، المجلد الأول ، دار الثقافة ، بيروت ،1997م
- حكمت علي الأوسي ، فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، مطبعة سلمان الأعظمي ، بغداد .

- الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2004 م
- حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، دار الأصالة ،ط12 1987م
- حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي ، دار الجيل ، بيروت (د.ت)
- ابن خفاجة ، الديوان ،شرح عمر فاروق الطباع ، دار القلم ، بيروت
- خميس الورتاني ، الايقاع في الشعر العربي الحديث ، دار الحوار ،(د.ت)
- راغب السرجاني ، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع،ط21 القاهرة 2010 م
- ابن الرومي ، الديوان ،شرح أ. أحمد حسن بسج ،ج3،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان
- الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج1 1 1998م
- سامية جباري ، الأدب والأخلاق في الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين ،دار قرطبة ،ط1 ، الجزائر ،2009م
- سامي يوسف أبو زيد ، الأدب الأندلسي، دار المسيرة،ط1 ،عمان ،2012 م
- ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف
- ابن سناء الملك، دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق د. جودت الركابي ، ط3 دار الفكر ، دمشق :1980
- شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النويري ،نهاية الأرب في فنون الأدب ،تحقيق د.يحي الشّامي ،الجزء الخامس، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان .
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدّول الإمارات بالأندلس، دار المعارف ، القاهرة.
- صفي الدّين الحلي، العاطل الحالي والمرخّص الغالي ،تحقيق، د. حسين نصّار ، الطبعة الثانيّة، دار الكتب والوثائق القوميّة ، القاهرة ،2003

- صلاح محمد جرّار ،قراءات في الشّعر الأندلسي ،دار المسيرة ، عمان(د.ت)
- الضبّي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس تحقيق ابراهيم الأبياري ج1،دار الكتاب اللبناني ،بيروت.
- الطّاهر أحمد مكّي ،دراسات أندلسية في الأدب والتّاريخ والفلسفة دار المعارف ،الطّبعة التّالثة ،القاهرة 1987م.
- عبد الحميد سلامة بن زيد، خصائص الإيقاع في الموشّحات العربيّة ،دار المدار الإسلامي 195،بيروت ،لبنان ،2009.
- عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة ،تحقيق عبد اللّه الدّرويش ، الجزء التاني ،الطّبعة الأولى دار البلخي ، دمشق 2004 .
- عبد العزيز محمّد عيسى ،الأدب العربي في الأندلس مطبعة الإستقامة ،القاهرة .
- عبد الفتّاح داود كاك ،الموشّحات الأندلسية نشأة وتطوّر ،تأثير وتأثّر ،دراسة وصفيّة تحليلية .2015.
- عبد الواحد المرّاكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،شرح د. صلاح الدّين الهوّاري . 1،المكتبة العصريّة ، بيروت ،2008.
- العربي سالم الشّريف ، دراسات في الأدب الأدب الأندلسي ،مطبعة الإيمان ،بغداد ، 1971م.
- الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان محاسن الأعيان ، تحقيق د. حسين يوسف خريوش ،الجزء 1-2 ،الطّبعة الأولى ، مكتبة المنار .
- فوزي سعد عيسى الموشّحات والأزجال الأندلسيّة في عصر الموحّدين ،دار المعرفة الجامعيّة الإسكندريّة ، 1990م.
- فوزي عيسى ، الأدب الأندلسي (النّثر ،الشّعر ،الموشّحات)دار المعرفة الجامعيّة ،الإسكندريّة،2012م

- الفيروز أبادي ،القاموس المحيط ،تحقيق أنس محمّد الشّامي ،زكريّا جابر أحمد ، دار الحديث القاهرة ،2008 م.
- ابن قتيبة ، الشّعر والشّعراء ،دار إحياء العلوم ،بيروت ، (د.ت) .
- قدامة بن جعفر ،نقد الشّعر، تحقيق عبد المنعم خفاجي ،الطّبعة الأولى ،مكتبة الكلّيات الأزهريّة ، 1978 م.
- ابن اللّبانة الدّاني ، الدّيوان ، تحقيق د. محمّد مجيد السّعيد دار الرّاية ،الطّبعة الثانيّة ، 2008م.
- لسان الدّين بن الخطيب ،جيش التّوشيح ،تحقيق هلال ناجي ، مطبعة المنار ،تونس (د.ت).
- محمّد بن عبد الرحمان البشر ،مآسي الأندلس ، مكتبة العبيكان ، الرّياض ، الطّبعة الأولى 2008م.
- محمّد حسن قجّة ،دراسات في التّاريخ والأدب والفن الأندلسي محطّات أندلسيّة ،الدّار السعوديّة ،الطّبعة الأولى ،1985م.
- محمّد رجب البيّومي الأدب الأندلسي بين التّأثر والتّأثير ،إدارة الثّقافة والنّشر بالجامعة، 1980 م
- محمّد رضوان الدّاية ،في الأدب الأندلسي ،دار الفكر ،الطّبعة الأولى ، بيروت .
- محمّد زكريّا عنّاني ، تاريخ الأدب الأندلسي ،دار المعرفة الجامعيّة ،1990م.
- محمّد عبّاسة ،الموشّحات والأز جال الأندلسيّة و أثرها في شعر التروبادور ،دار أم الكتاب ، الطّبعة الأولى ، الجزائر ،2012م.
- محمّد عبد الله عنّان ،دولة الإسلام في الأندلس ،العصر الثاني ،دول الطّوائف منذ قيّامها حتّى الفتح المرابطي ،مكتبة الخانجي ، الطبعة الرّابعة ، القاهرة ، 1997م.
- مصطفى الشّكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،دار العلم للملايين ، ط12 ،بيروت لبنان، 2014 م

- منجد مصطفى بهجت ،الأدب الأندلسي الفتح حتّى سقوط غرناطة ،مكتبة لسان العرب ، الموصل (د.ت)
- ابن منظور ، لسان العرب ،دار صادر بيروت ،(د.ت) .
- ابن هانئ ، الديوان ، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت ،1980 م .
- أبي هُريرة الأعمى التَّطيلي ،ديوانه ،تحقيق د.احسان عبَّاس ، دار الثّقافة ،بيروت لبنان(د.ت).
- أبو هلال العسكري ، الصّناعتين ،تحقيق محمّد علي البجّاوي ،دار احياء الكتب العربيّة الطّبعة الأولى ،1952 م .
- يونس طركي سلّوم ، المعارضات في الشّعر الأندلسي ،دراسَة نَقديَّة مُوازنة ، ط1، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان (د.ت) .

➢ المجلات:

-محمّد زكريّا عنّاني، الموشّحات الأندلسيّة عالم المعرفة ،العدد 31،الكويت ،1980.

➢ الكتب المترجمة:

-أغناطيوس كراتشوفسكي ، دراسات في تاريخ الأدب العربي ، منتخبات ، الشعر العربي في الأندلس ، ترجمة محمد المعصراني ، دار النشر ،علم ،موسكو 1965م

-انخل جنتاليتبالانتيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2011م

-ايمليو غارسيا غومس ، الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، ط1 القاهرة 1952م

-ماريا خيسوسروبييرامتيّ،الأدب الأندلسي ، ترجمة أشرف علي دعدور ، المجلس الأعلى للثقافة .

الفهرس

الملخـــــــــــــــص

يتمحور هذا البحث حول مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي ، تحدثت فيه عن نشأة الشعر الأندلسي من عصر الولاّة حتى عصر الخلافة ، كما عالجت بعض الحركات التجديدية التي ابتكرها الأندلسيون منها شعر الطبيعة والموشحات والأزجال ورثاء المدن والممالك الأندلسية التي عبر فيها الشعراء عن حزنهم وتفجعهم على ممالكهم التي سقطت .

الكلمات المفتاحية : الشعر ، الأندلس ، الطبيعة ، الموشحات ، الأزجال ، رثاء الممالك.

Summary:

This research deals with the aspects of renewal in Andalusianpoetry.inwhich I spoke about the andalusianpoetryfrom the era of the governorsUntil the era of the caliphate. It alsoaddressedsome of the innovativemovementsthat the andalusiansinvented .including the poetry of nature.Mochahat and azjal.and the lamentation ofthecities and the andalusiankingdoms .on theirmamelukesthatfell

Key words : poetry ,andalus , nature , mochahat, Azjal , lamentation of the kingdoms

Résumé:

Cette recherche traite des aspects du renouveau de la poésie andalouse , dans lesquels j'ai parlé de la poésie andalouse de l'époque des gouverneurs à celle du califats , ainsi que de certains des mouvements novateurs inventés par les andalous, notamment la poésie de la nature , mochahat , Azghal et les lamentations des villes et des royaumes andalouse , sur leurs mamelouks qui sont tombés.

Mots clés : la poésie , andalouse , la nature , mochahat , Azghal , la montations des royaumes